KHALID AL-BASSAM



خالد البسام

لا يوجد مصور في عنيزة

إلى أهل عُنيزة..

الباقون على النبل..

والكبرياء.

هذه الرواية لاتدعي الخيال ولاتؤكد
الحقيقة، لكنها من بقايا ورماد
الاثنين معاً.

في ساعات الليل الأولي، عندما ينتهي الرجال من صلاة الإخِير «صلاة العشاء» في مساجد المدينة، يعود الجميع إلى بيوتهم الطينية الصفراء، ويبدأون مسامرات الليل، و«سواليف» الظلام، على وقْع فناجين القهوة التي لاتنتهي.

عند الليل تبدو مدينة «عنيزة» وكأنها مدينة أخرى، مدينة مختلفة تماماً، تضُج البيوت بالكلام وخاصة الكلام الذي لا يقال في النهار.

كانت الطرقات مظلمة، ولكن «السواليف» منيرة في الكثير من البيوت تدعو الناس للدخول في تلك المجالس المفتوحة الأبواب والمضاءة بمصابيح الكيروسين.

عندما خرج «يوسف» من الصلاة مع بقية الشباب تعَمد أن يسلك طريق «الخياط» والسير بحذر بسبب الظلام الحالك وسط حواري وأزقة تلك المنطقة الصغيرة. في طريقه كانت أصوات مدق «هاون» طحن البن الرخامي اليدوي في بعض المنازل، وكأنه أجراس تعلن عن كرم صاحب هذا البيت أو ذاك ودعوته لأصدقائه والناس للحضور والمسامَرة.

لم يكن أمام «يوسف» سوى أن يختار جرس إعداد القهوة الجميل الذي يحب. فهذا بيت «العنيزاوي» وذاك بيت «رغيب» والكثير.

بعد دقائق قليلة وصل إلى بيت «المقبالي» المعروف، صاحب دكان القماش في السوق، وكان الباب الخشبي المطرز بالألوان والمثبتة عليها كرات من الحديد، قد فُتح على مصراعيه.

«سلام عليكم»، قالها «يوسف» بصوت عالٍ لمجموعة الرجال الذين سبقوه وجلسوا في المجلس.

ثم يهب الجميع بالوقوف لرد السلام والتحية:

- يا الله حيوو.. هلا هلا بيوسف..

وما إن جلس في إحدى الزوايا على الأرض حتى انطلقت السواليف على الفور بعد هدنة السلام القصيرة!

كانت القهوة في المجلس على وشك أنْ تجهز وتدار بفناجينها الصغيرة على الجميع. ففي الصيف أو الشتاء فإن النار في زاوية المجلس تبقي مُوقدة ووراءها مقدار كبير من الحطب لتحضير القهوة، وكان ذلك عنواناً كبيراً للكرم.

قام أحد «الشيبان» وواصل حكايته التي حدثت في السوق اليوم، وقال: .. وبعدما حضروا رجال الأمير، وأغلقوا دكانه راح يشتكي للأمير نفسه، وحلف أنه ما باع أكثر مما يبيعون في السوق.

وبعد «الحِلفان» وبعد جمع بعض الشهود، قال له الأمير: خلاص.. بعد يومين تفتح دكانك.. ولا أشوف وجهك مرة ثانية.

ولم يكد «الشايب» ينتهي من حكايته حتى قفز رجل آخر انتهى لتوه من أول فنجان قهوة، وقال للحاضرين: لكنْ وِديْ أقول سالفة لكم شفتها بنفسي اليوم.

ورد البعض بصوت عالٍ واحد: وِشّ شفت يامحيسن؟

قال: جَاْت حرمة في سوق القماش في الصباح حتى تفصل ثوب لزوجها الموجود خارج عنيزة. وبعدْ ما عجز الخياط يعرف قياس زوجها المطلوب، لم تيأس الحرمة ونادت على رجل في الشارع وقالت: شف..

من فضلك.. زوجي ماهُوب موجود، وهذا الخياط ما يعرف قياسه، وأنت قياسه بالضبط.. فمن فضلك خل الخياط ياخذ لك قياس.
استحي الرجل طبعاً من طلب المرأة، لكنه نظر في وجه الخياط موحياً بالقبول. وفعلاً أخذ الخياط عليه القياس وشكرته المرأة.
في طريقها إلى البيت شعرت «أم مساعد» بأن حكايتها انتشرت بين النساء اللواتي كن متواجدات في السوق. والدليل أنها واجهت الكثير من التعليقات على «عدم حيائها»!
حتى في البيت وصل الخبر إلى والد زوجها الذي عنفها، ثم طلب منها عدم الخروج من البيت مرة ثانية إلا لشيء ضروري، يقرره هو طبعا.
سالفة وراءها سالفة حتى تكاد القهوة تنفد والرجال يبدأون في التثاؤب، ونار القهوة الحمراء التي كانت مشتعلة حماسا والعالية الهمة تتحول إلى جمر يغطيه الرماد الأبيض يستعد للانطفاء.
ظل «يوسف» وحده ينتظر تلك السواليف التي يحبها والتي لم يتحدث عنها أحد .
بعد خروجه من المجلس كان هواءٌ باردٌ خفيفٌ في انتظاره، لكنه تجنبه بغترته الحمراء ومضى إلى حيه

القريب، مخترقاً بعض الأزقة المظلمة.
عندما دخل البيت اطمأن إلى أن والدته قد نامت وأخته الكبيرة كذلك. وبعد أن وضع رأسه على مخدته لم يجد آثراً لنوم .
نامت عنيزة في تلك الليلة، لكن ي«وسف» هو الوحيد ربما الذي لم يتثاءب بعد.

استيقظ يوسف في الفجر كالعادة، لكنه وجد أن أحلامه الكثيرة التي سيطرت عليه في البارحة لم تفارقه بعد.

حاول استرجاع بعض تلك الأحلام، غير أن مناداة والدته له أضاعت كل شيء.

- عساك مَتّبٍ تعبان يا وْلِيْدِي اليوم.. قالت له الأم والقلق كان واضحاً على وجهها .

رد بتثاقل: لا.. بس أحلام كثيرة خلت نومي قليل.

- اشرب الشاهِي الحين وكل شي يصير زين.

وبالفعل شرب فنجانين من الشاي ولبس ثوبه وغترته، ثم قبل رأس الأم وودع الأخت وخرج.

في الشارع كان بعض الأطفال قد بدأوا يلعبون، والرجال تحركوا إلى أعمالهم، أما السوق فقد كان ينتظر التجار وأصحاب الدكاكين كي يفتح أبوابه.

عبَر يوسف بعض الأزقة متجهاً إلى حقله في مزرعة «المهرانية» شمال عنيزة التي تملكها عائلة «المشيقر» الثرية. وقبل وصوله شعر بتأخره اليوم بعد أن سمع غناء الفلاحين في المزارع المجاورة قد بدأ. كان غناؤهم عذباً وأصواتهم شجية ولكنها عالية، بحيث يُسمع غناؤهم من بعيد. وبدل أن يسرع أطربه الغناء وراح يردده معهم من بعيد، ووصل متأخراً على غير عادته.

عند بوابة المزرعة الكبيرة كان العم «محمد المشيقر» بانتظاره. لم يسأله الرجل عن سبب تأخره بل دعاه إلى شرب فنجان قهوة.

بعد القهوة كان عملٌ شاق بانتظاره. بدأ أولاً بالنخيل، فركب ثلاثاً منها وراح يُلَقحها كما اتفق مع العم محمد قبل يومين. وقد ساعد طول وخفة جسمه، الذي لم يبلغ عمره بعد الخامسة عشرة، كل هذا الطلوع والنزول من تلك النخيل الطويلة.

استغرقت تلك المهمة ساعتين تقريباً. وبعد أن انتهى استراح تحت ظل النخلة الأخيرة التي لقحها.

لم تدم تلك الاستراحة طويلاً. فالعمل الثاني في الفلاحة وحرْثِ الأرض وسقيِها ينتظره.
زادت الهمة مرة أخرى، وراح «يوسف» يشتغل هنا وهناك، وكان الفلاحون الآخرون يعملون بنفس الهمة في حقل الخَضْرَاوات بالمزرعة.
عندما جاء الضحى حضر الجوع معه، فسمع مناداة الفلاحين للاستراحة وتناول بعض التمر واللبن والخبز.
ومع الطعام ارتاح الجميع، فالبطون قاربت على الشبْع ولم تعد تصدر أصوات الأمعاء العالية كالعادة. واستلقي الفلاحون على ظهورهم في الأرض العارية وانطلقوا في سواليف الضحى.
بعد نصف ساعة تقريباً قام الجميع بمحاريثهم وأدواتهم إلى أماكنهم، غنوا قليلا لكنهم عملوا أكثر. في الظهر لبس كل واحد ثوبه الأبيض وارتدى غترته وغادروا المزرعة، والتعب لايخفي على وجوههم، وعرقهم كان ما يزال على جباههم.

عند العصر كان يوسف مع والدته وأخته الكبيرة «جواهر» قد جلسوا في المطبخ وراحوا يتناولون ما تيسر من طعام الغداء. أما سفرة ذلك اليوم فلم تكن لا أكثر ولا أقل فقراً من كل يوم. فهناك مرق خال من أي نوع من اللحوم والخَضراوات وخبز خبزته الأم في البيت، وشيء من التمر طبعاً.
إنها وجبة تُشبِع ولو إلى حين. ولم يكن يوسف يراها وجبة فقيرة بل هي وجبة أكثر أهل عنيزة، أما إذا حصل وأكلوا «جريش» مثلاً فهذا العز بأكمله.
قبل المغرب بساعة يخرج مع أصدقائه من فلاحين أو باعة إلى تجار في السوق، ويذهبون مع انخفاض

حرارة الشمس إلى «النفود»، حيث السهول والرمال الحمراء الناعمة إلى درجة أن يشعر الإنسان فيها أنه يجلس على حرير.

هنا لا شجر ولا نخيل ولا ظلال، إنما رمال ناعمة فقط. رمال تستطيع أن تنام عليها وتلعب بحباتها وترتاح بين أحضانها. إنها رمال ولا كل رمال الدنيا.

فوق إحدى التلال الرملية جلس الأصدقاء يروي كل واحد عن يومه أو بالأحرى عن مشقته في العمل. لكن لا أحد يتحدث عن الخلاص منه أو التفكير في الهروب منه. كان الكلام مجرداً، كلام لا ملل منه حتى ولو تكرر كل يوم. وإذا حدث وأصابهم الملل صاح أحدهم في المتحدث قائلاً:

- يا شيخ فكنا بس..

وهنا إما أن يضحكوا أو يستلقوا بظهورهم على الرمال طلباً لنجدة ما، في تغيير الحديث أو حكايات العمل.

على امتداد البصر تبدو «النفود» وكأنها رمل لاينتهي. حبات حمراء فاتحة وصفراء تدخل في أجسادهم من الرجّل إلى شعر الرأس، ومع ذلك فهم لايمانعون ولايتضايقون من دخولهم، بل يشعرون أحياناً وكأن ذلك ضريبة هذه الفسحة الجميلة قبل المغرب.

بعد تلك الاستلقاءات القصيرة على الظهور يعود الحديث مرة أخرى، فيما تبدأ الشمس في رحلة الغروب.

عندما يلتفت يوسف أو أحد أصدقائه صوب سَهلهم الذي يجلسون عليه، يرون السهول القريبة وقد امتلأت تقريباً بأهل عنيزة. فتلك الرمال الناعمة هي ملتقي معظم أهل عنيزة في العصر. إنها مكان سواليف وراحة نهاية النهار بعد الأعمال المضنية.

وهكذا تجد «النفود» وسهولَها وقد غصت بالناس. بعضهم جلس يثرثر والأطفال يلعبون بالرمل وآخرون يستلقون للراحة، وغيرهم أحضر الشاي معه.

وليس من الغريب بين تلك السهول أن تجد شاباً أو رجلاً وقد أخذه التعب فأخذ غفوة، أو راح في نوم عميق على سرير ناعم لكن من الرمال. فبين كل مجموعة تجد واحداً أو اثنين مستلقيين، وواحد منهم نائم أو يحاول النوم أو ينتظره بفارغ الصبر. بل إن «شايع» وهو أحد أصدقاء يوسف لايتردد في النوم القصير على السهل الناعم، ويحلف لهم دائما بأنه يفضله لنعومته وبرودته المعتدلة على فراش البيت.

غير أن النساء المسكينات ليس لهن مكان هنا مهما كن صغيرات. فـ«النفود» للرجال فقط! وقد يذهبن

للتمتع بتلك الرمال الذهبية ولكن في أوقات لايتواجد فيها الرجال، أو خفية عن الجميع وخاصة الأمهات الكبيرات والجدات اللواتي يحرسن البيوت ويعطين الأوامر.

ففي وقت النفود تجلس النساء في بيوتهن يحضرن بعض العشاء أو لقمة لرجال البيت الذين سيَصِلون بعد كل هذا اللهو والاسترخاء في الرمال وبطونهم خاوية لم تُشبِعها الحكايات ولا السواليف. وحين تغرب الشمس أو تكاد يرجع كل هؤلاء من تلك المتعة الجميلة إلى المسجد ليؤدوا صلاة المغرب.

لا بيت يغلَق في عنيزة في الليل إلا إذا نام أهله، أو عندما تكون الحريم لوحدهن. ويوسف يعرف ذلك جيدا، لذلك لايقوى على النوم قبل المرور على أحد المجالس.

في تلك الليلة قرر أن يسمع الحديث الذي سمعه مرة من رجل مثقف جاء وحدثهم عن هجرته خارج نجد. ومنذ ذلك الوقت وهو يشعر أن تلك السواليف هي التي تبهجه وتغرقه في الأحلام.

هكذا صبر على أحاديث السوق والأمير والبدو والجمال التي لاتنتهي كل مساء، مثلها مثل القهوة الساخنة والنار المشتعلة. وعندما نفِد صبره قال

يوسف موجهاً حديثه إلى صاحب المجلس:

- لكن يا عم صالح.. ودنا تقول لنا عن رحلتك للبصرة بالعراق قبل عشر سنين؟

لم يتوقع العم صالح هذا السؤال، لعلمه أن رواد مجلسه البسطاء والأميين في غالبهم لايرتاحون إلى مثل هذه السواليف الغريبة وعن تلك المدينة العراقية التي هاجر إليها وهو صغير مع والده.

رد العم صالح:

- لكن.. وِيش اللي ذكرك بهذا يا يوسف؟

- والله ودي أسمع منك بس؟

- رحت البصرة وأنا صغير مثلك في قافلة جمال، ومعنا يمكن أربعين شخصً من نساء وأطفال ورجال غير الجمالة. والله وُتعبنا كْثير حتى وصلنا.. رحلة كانت ما في أتعب منها.

وأكمل: ويوم وصلنا جلسنا في بيت خالي المقيم هناك من سنين طويلة. وفي هذه البلدة شفت شيء ما شفته في حياتي واستنكرت.

رد بعض الجلوس:

- وِشْو هذا.. يا عم؟!

- سيارات ومقاهي وجرائد وأشياء كثيرة.. وشوي شوي عرفتها مع الوقت وراح استنكاري لها. لكن

الأحسن من هذا كله أن خالي شارّ علِي بأن أدخل مدرسة زينه أتعلم فيها القراءة والكتابة. ودخلتها والحمد لله تعلمت.

بدت الدهشة على بعض الحاضرين، بينما بدا يوسف مستلِذا بالحكاية ويتمنى أنْ لا تنتهي.

وتابع العم صالح حكايته: لكن يا جماعة البصرة مدينة كبيرة متحضرة.. صحيح إنها تشبه عنيزة بالنخيل، لكن كل شئ بها غير. بعض الناس غَيروا لباسهم وصاروا يلبسون سراويل بدل الثياب وكأنهم أجانب. وكان ما ودي أرجع لكن أبوي لَزم علي بالعودة ورجعت معه.

سأل احد الحضور:

- وكم جلست هناك يا عم؟

- والله ماهو بكثير.. سنتين وشوي. مرت بسرعة كأنها برق. وأقول لكم شئ بعد. بعد ما رجعت عنيزة صرت صديقاً لخالي بالبصرة. رحت أكتب له مكاتيب أخبره عن عنيزة وهو يكتب لي عن البصرة ويرسل أحيانا جرائد أحبها. لكن كل شيء وقف العام الماضي بعد وفاته الله يرحمه.

بدت الحكاية وكأنها على وشك النهاية أو انتهت كما شعر يوسف، لذلك حاول إطالتها بسؤال غريب:

- خالك يا عم توفي بالبصرة؟
- نعم.
- ودفن هناك.
- أجل.
- وراه يا عم ما يندفنون النجَادة اللي بره بعنيزة؟ ويش السبب؟

احتار العم صالح في السؤال قليلاً، ثم رد بدبلوماسية:

- والله الأرجح صعوبة نقل الجثمان من تلك البلدان.

في تلك الإجابة وجد يوسف بعض الإقناع، ولكن أيضا بعض الغموض الذي يلف عشرات المهاجرين من عنيزة إلى البحرين والهند والكويت وغيرها. فقد كانت حكايات الهجرة والمهاجرين مشوقة، وتبدو في بعض الأحيان وكأنها خيالية، ولكنها في أحيان أخرى كذلك تبدو عصِية على الفهم. يلفها الكثير من الغموض الذي يطغى عليه نسيان المهاجرين ورسائلهم القليلة ونقودهم اليسيرة التي يرسلونها إلى أهاليهم.

بعد ذهاب يوسف مباشرة إلى عمله بالمزرعة في الصباح الباكر، تبدأ والدته وأخته «جواهر» بالعمل فورا في ترتيبات البيت وتنظيفه، فتشرع جواهر أولاً في كنس الغرف الثلاث، بينما تنهمك الأم في أعمال المطبخ.

ورغم مشقة عمل البيت إلا أنه سرعان ما يُنجز مبكراً. فالعائلة بعد وفاة الزوج بجلطة دماغية وهو لم يتجاوز الخمسين من عمره، لم تعد تأكل كثيراً ولايغشى بيتها إلا ضيوف من الأهل. ويبقي غسل الثياب هو المهمة الشاقة التي لاتنتهي في البيت.

إذا انتهى كل شيء وأصبح البيت مرتباً ونظيفاً،

والثياب قد نشرت على السطح، لايبقى أمام الأم والبنت إلا التهيؤ لزيارة مجلس «أم سلطان» المشهور في الحي كله.

كلها دقائق وتخرجان بعباءتيهما السوداوين وتصلان بعد دقائق. أما باب مجلس «أم سلطان» فهو مفتوح من الضحى وحتى الظهر، فكل الحي يعرف هذا المجلس وسواليف الحريم التي لاتنتهى، الحافلة بضجيج الثرثرة والنميمة الخالصة.

في العادة تكون «أم يوسف» وابنتها أولى الحاضرات، ومن أوائل الباثات همومهن وأسرارهن في المجلس العامر.

عند العاشرة والنصف تقريباً يكون المجلس غاصاً بالنسوة وضاجاً بالكلام. لكن «أم عبدالقادر» تصر على أن معاناتها من عدم الحمل هى أهم سالفة في الدنيا، وأن قصتها والأهم خوفها من رجلها الذي طال انتظاره وقارب التعب هي أكبر مأساة في الدنيا، أما المصيبة الكبري فهي هواجسها من أن يتزوج ع'يها. على أن نساء المجلس تَعِبن أيضاً من كثرة نصائحهن لها من وصفات أعشاب وغيرها.

وتمسك «أم يوسف» نفسها بطرف الحديث فتصف معاناة ابنتها التي تغيب عن المجلس لدقائق ريثما

تنتهي أمها من سرد الحكاية كل يوم. تقول بحسرة:

- والله ياجماعة.. ترى بنتي مزيونة وجميلة، لكن مادرى ليش حظها كِذا. الحين وصلت إلى سبعةْ عشرةْ سنه وهى ما تزوجت، وما لقت ولد الحلال. جاها واحد زين قبل سنتين ومن الأجاويد لكنه راعي سفر. ما هوب جالس بعنيزة، يسكن بالبحرين. البنت عيت تروح معه، ما ودها ياعيني تفارق عنيزة وتفارقني. ومن يوم ما ردينا الرجل ما جانا رجال غيره. والله البنت ما بها شئ ينعاب، وِشو السوات والله عجزت أفكر.

هنا توقفت أم يوسف عن الكلام بعد أنّ اغرورقت عيناها بالدموع. لكن نسوة المجلس رِحن يُهَون عليها: إن شاء الله ما يصير إلا الخير.. تصبرَي إن شاء الله وتلاقي خير.. الرجاليل واجد يا بنت الحلال.. مير هوني عليك.

واستمر التعاطف حتى قاطعتها «أم هلال» بقصة عن جارتها التي تسميها دائما بـ«الحسودة»، وقالت للمجلس:

- هذي الحسودة الجشرة جارتي اللى الله بلاني بْها، جات أمس تحسدني على إنّ أبوالعيال شرا لوِلده حمد ثوبٍ جديد. وتقول هي إيه حِنا ما خبرنا إنّ

يشترون حق عيالهم ثياب إلا بالعيد! الله بس يصبرني عليها.

ردت واحدة: والله هالجشرة كأن زوجك اشترى الثوب من مال أبوها.

وتسلمت مهمة النميمة «أم سويلم» وقالت وهي تبتسم بخبث: ماسمعتوا عن «أم سويدان»؟

رد الجميع بصوت واحد تقريبا: وِش بْها.

قالت: صار لها يومين جالسه بيت أبوها، والرجل كأنه ما يبغي يرجعها لبيتها!

وسألت «أم سلطان»: وِش صار بينهم يا خْوَيّتِي..

قالت: مثل ما سمعت إن الرجال جاء للبيت وما لقاها موجودة ولا مْحَضْرِه لقمة له. جلس بداره غضبان وجات هي بعد نصف ساعة. ولما سألها قالت ببرود: كنت في بيت أهلي. رد عليها ببرود أيضا وقال لها: خلاص.. رجعي بيت أهلك ولا أبي أشوفك مرة ثانية. لمت أغراضها بدقائق وراحت لبيت أبوها وهي تصيح وتولول.

قالت واحدة من الحاضرات: قلعتْهَا.. تستاهل.

وعلقت أخرى: والله الحُرمة اللي تتأخر عن زوجها ولاتصلحه لقمة ما تتساهل إنْ تجلس بيته.

وقالت أخرى: طيب.. وِشو سوت بعياله؟

ردت «أم سويلم»: لا.. خذت عياله معها وخلت الرجل.

وأخذت هذه الحكاية «لذة» النميمة، فراحت كل امرأة تقول رأيها بالموضوع. وبينما اتفقن على إدانة ما قامت به تلك المرأة واستهتارها، شذت امرأة شابة عنهن بقولها:

- وش هالرجل هذا.. لو كل الرجاجيل مثله وبغضبه كان كلنا جِنا مطلقات من زمان!

وحاولت «أم سلطان» إنهاء الموضوع قائلة: هَينْ.. هين ياحريم ترى الرجاجيل هذى الأيام صايرين مثل الكبريت.. لا أحد يلوعهم بس.. حطوا بالكم على أنفسكم وْتِرْكُوا هذرة الحريم!

لكن هذرة الحريم استمرت رغم وقف النميمة، فما زال الوقت مبكراً لقطعها أو بتر «حلاوة» الثرثرة.

وهكذا قطعت بنت «الشبلاوي» استراحة الصمت في المجلس وراحت تروى لهن قصة بيت «الماضي»، قائلة:

- ترى جو حريم أمس العصر بيت الماضي يطلبون إيدْ بنتهم الصغيرة الحلوة «سارة» حق ولد «رغيب» الكبير «علي».

تسمرت العيون نحو الراوية التي استعدت لتحكي

قصة بدت طويلة، والتي واصلت:
- وبعد السلام والتحيات وشرب القهوة والشاهي.. تكلموا الحريم عن رغبتهم بخطبة سارة. وردت حريم الماضي: ما يصير خاطركم إلا طيب. لكن السالفة مثل ما يقولون إنّ البنت ما تريد الرجل. ويوم سألوها قالت إنه كبير وشين. وهذا أغضب أبوها اللي كان مِعتبِر علي وأهله من أهل الحمايل.
قالت واحدة من الجالسات: وخلصت القصة يا خويتي على كذا بس؟
ردت راوية القصة بحماس: لا وانت الصادقة.. السالفة ما خلصت.. ويقولون إنّ أبوها مصمم على زوجها من ولد «رغيب» مهما حصل.
وتدخلت أخرى: وراه هِي ما تاخذه.. وش شايفه هي بنفسها! إذا على الجمال، كثير من بنات عنيزة مزيونات.
قالت «أم يوسف»: ترى المزيونه مزيونةْ عَقُل مَهُوب جمال بس.
ردت عليها «وضّحة»: والله يا بنت الحلال الواحدة منا ما تدرى وشتسوي. كلنا في الغرابيل سوا.
وماكادت «وضحة» تقول كلامها حتى سمعن المؤذن يرفع أذان صلاة الظهر. وهنا صاحت واحدة وهي

تقوم واقفة: يالله ياحريم.. استروا على ما واجهتوا! في ثوانٍ قليلة جمعت كل امرأة عباءتها وسلمن على «أم سلطان» صاحبة المجلس، وخرجن في الطرقات، وكأن ثرثرة لم تُقَلْ، وكأن نميمة لم تحدث.

خرجت جواهر من مجلس أم سلطان» وهي تبكي في الطريق. وما إن دخلت البيت حتى تحول بكاؤها إلى صراخ ودموع.

حاولت والدتها تهدئتها لكنها صرخت في وجهها: كم مرة قلت لك أنْ لاتتحدثي في موضوع عنوستي؟ ألا تفهمين؟ ألا تشعرين بمعاناتي ومصيبتي؟ لا أريد أنْ تصبح عنوستي على كل لسان في عنيزة.

استمرت «جواهر» في العويل والأم تطلب المغفرة منها قائلة: والله يا بنيتي.. أنا مثلك أعاني وتعبانة، وكل اللي قصدته هو إني آطلع ما في قلبي.

تبلل فستانها العلوي بالدموع، واحمرت عيناها،

وراحت تشهق من شدة الحزن.

عندما أوت إلى فراشها راحت تداوي نفسها بالكلام: يا إلهي.. ما الذي فعلته لكي لايأتيني رجل؟ وما الذي صنعته كي أبقى بلا زواج؟ هل أنا قبيحة أو بيَ عيب؟ كل نساء عنيزة مثلي، بل إنني أحسن من الكثير من الفتيات اللواتي تزوجن قبلي. ألم يسمع عني أحد؟ ألا تعرف عنيزة أن في هذا البيت فتاة جميلة مستعدة للزواج؟!

كانت الأم تسمع فضفضة ابنتها ولاتقوى سوى على البكاء مثلها حسرة، وتتمنى لو أنها لم ترو قصتها في مجلس اليوم.

أغلقت «جواهر» غرفتها بإحكام حتى لاتسمع والدتها شيئاً، واستلقت على الأرض، وواصلت حَكْيَها الحزين: وإذا ماتت أمي فمن سيبقى لي؟ أمي ما هي صغيرة كبرت وبدا التعب والكبر واضح في جسمها. أجلس بوحشة البيت لوحدي. يوسف سوف يتزوج قريباً ولن يبقى لي. وين أروح بعدين. يارب وِش السوات. أجلس في هذا البيت وأصيح مالي أحد لا ونيس ولا ونيس.

كانت تود أن تواصل هذا الشجَن شبه اليومي لكن والدتها قاطعتها عندما دخلت عليها الغرفة قائلة: يا

الله يا بنيتي.. ترى أخوك في الدرب.. يا الله خلينا نحضر الأكل قبل لايجيّ.
مسحت «جواهر» دموعها بسرعة لحرصها الشديد على ألا يراها «يوسف» وهي بهذه الحالة، فالشاب صغير وعمله بالفلاحة مرهق جدا، ثم ما هو ذنبه؟
دخل «يوسف» البيت مبتهجاً، ونادى على أمه: تراني اليوم معزوم عزيمة «مطازيز». ردت الأم وهي فرحة: عساك يا وليدي كل يوم بعزيمة.
قالت «جواهر» في سرها : ياليتني رَجال!
عند المغرب وصل الكثير من الشبان إلى بيت «الشبلاوي» الكبير عند «المفرق»، ولم يكن يعرف الجميع أن الدعوة للوليمة «العزيمة» بمناسبة عودة الولد من الكويت بعد سنتين قضاها هناك يعمل مع عمه.
كانت السفرة عامرة بالطعام اللذيذ، لكن «المطازيز» كانت هي الأشهى والألذ الذي لايختلف عليه أحد. فمهما كبُرت السفرة وازدانت بأطباق لذيذة أخرى مثل «الجريش» و«القرصان» وغيرها، فالمطازيز هي سيد الأكل.
عند الانتهاء من تناول الطعام ضج بعض الشبان ضحكاً على «أبو محمد» الذي ما أنْ انتهى من غسل

يديه حتى قدم له أحد الصغار منشفة موضوعة في ما يشبه الطبق، فرد عليه وهو يربت علي بطنه قائلا: لا يا وليدي.. خلاص ما به مكان.. شبعان بالحيل!
كان «أبو محمد» المسكين يظن أن المنشفة نوع آخر من الطعام. ولم تكن تلك هي الطرْفة الوحيدة في العزيمة، بل إن واحداً من أقرباء «الشبلاوي» عندما أعطِي طبق محلبية سأل هل به سكر؟ فقالوا له: طبعاً. فرفضها في الحال. وعندما سألوه عن السبب قال: أخاف أدمن عليها!
بعد الطعام اللذيذ والضحكات تجمع الجميع في المجلس. وكانت القهوة قد جهزت والنار متقدة والوقت للسواليف مناسب، وكلها طبعا عن الكويت.
قال يوسف: وش كان عملك يا خيي هناك؟
رد ابن «الشبلاوي»: عملت مع عمي بالتجارة. وعندنا دكين صغير في سوق «سكة بن دعيج»، وهذا سوق عامر وكبير مثل سوق عنيزة.
بدت القهوة الساخنة وكأنها هي التي ترعى الحكايات. وراح الرجل يروي ما شاهده في الكويت، والأسئلة تنهمر عليه من كل مكان.. حول الطقس وحول النساء وحول التجارة والبيوت.

لكن ابن «الشبلاوي» لم يتعب من الإجابة والرد بل راح يجيب ويستفيض أيضاً في ردوده، ويتحدث وكأنه أقام في الكويت عشرين عاماً، أو كأنه خبير في ذلك البلد.

كان يشعر بالتباهي أمام أهل عنيزة بأنه سافر أولاً ثم أنه أصبح في حكم التاجر، كما أنه تعلم القراءة والكتابة وصار يقرأ ما يريد، والأهم يكتب المكاتيب لأهله وأصدقائه.

في مقابل التباهي كان الجالسون كلهم شباناً مثل يوسف وغيره، وحتى الأكبر سناً راودهم نوع من الغيرة من ابن «الشبلاوي» هذا، وأحياناً حسدٌ من سَفَرِه وتعلمه وتجارته، وهم الفقراء الذين لايقرأون ولا يكتبون ولم يسافروا في حياتهم إلى أي مكان.

بعد خروجهم من البيت كان الظلام بانتظار الجميع ليفرقهم إلى بيوتهم الهادئة.

لاتستيقظ «سارة» بنت «الماضي» إلا متأخرة رغم نداءات والدتها لها بالنهوض. لكن البنت الجميلة التي رفضت الزواج مؤخرا من ولد «رغيب» لاتجد حاجة لذلك.

فبيت «الماضي» به الكثير من الخدم نساء ورجالاً، وهي ابنة مدللة لوالدها. وعلى عكس الكثير من بيوت «عنيزة»، فبيت الماضي يعد واحداً من أكبر البيوت مساحة وحجماً. فهو من ثلاثة طوابق وأكثر من ثماني غرف وملاحق ومطبخين وحوش كبير، وبعض النخيل مزروعة على أطراف البيت.

بيت الماضي هو بيت عِزٍ بامتياز شديد، وبيت كرم

لاتتوقف فيه الولائم، والمجلس مفتوح بالليل يستقبل أهل عنيزة صغاراً وكبارٌ فقراء وأغنياء.

أول ما تفعله «سارة» بعد استيقاظها المتأخر هو مطالعة وجهها الجميل في المرآة الكبيرة التي أحضرها عمها من البصرة قبل عامين. وأحيانا تستمر في مطالعة الوجه وتأمله لوقت طويل، لكن هذا يتخلله أيضا تسريح شعرها الأسود الناعم الغزير. ومع هذا التأمل في المرآة وتسريح الشعر تشعر بسعادة بالغة، تحس أنْ لا شيء في الدنيا يستطيع أن يُنغص عليها. فهي بنت جميلة وكل الرجاجيل يتمنَّوْنَها ، ووالدها ثري ومن عائلة معروفة، والبيت كبير، وهي مدللة. لذلك تقول في نفسها ما حاجتى لقبول ولد «رغيب» الشين؟ وعلى ماذا العجلة وجمالي ما يزال في بدايته!

وتحدث «سارة» نفسها وهي تنظر لوجهها في المرآة قائلة: ما ناقصني شئ، لا فلوس ولا خدم ولو أبي أسافر بعد أبوي ما يقصر. وحتى ولو هو غضبان الحين، لكن بعدين يهدا ويلين. وأنا أعرف أبوي زين يغضب بسرعة ويلين معي بسرعة.

وتفتح عمتها «نورة» الباب وتقول لها: اشلونك ياسارة.. كانك تسولفين لوحدك. فترد عليها: لا

ياعمتي.. كنت أطالع شعري وأقول إنهْ طال واجد.. ما دري أقصه شوي والا أخليه.. وش رايك؟

- والله ما دري يابنتي.

خرجت العمة من الغرفة، ونزلت إلى الطابق الأول. غير أن سارة استمرت في عملية تسريح الشعر والتأمل مع نفسها وقتاً أطول وأطول، ولم تتوقف إلا عندما سمعت والدتها تنادي النداء الأخير بضرورة النزول إلى الطابق الأول وتناول الإفطار معها ومع عماتها.

بعد إفطار شهي عادت إلى غرفتها وراحت تتسلي بشعرها في الحمام وهى تستحم.

بعد عودتها إلى الغرفة تذكرت فجأة ذلك الشاب الصغير الذي لمح وجهها قبل فترة وهي خارجة من البيت مع والدتها، تذكرت تلك الابتسامة التي أطلقها في وجهه لها. لم تعرف اسمه حتى الآن لكنه انطبع في ذاكرتها جيداً بالولد المزيون.

في العصر كان «يوسف» على موعد مع صديقه «مساعد» الذي أخبره بعد وليمة بيت الشبلاوي أن عنده كلاماً مهماً يريد أن يقوله.

قبل رحيل الشمس بفترة جاء «مساعد» إلى «يوسف» في «النفود»، وجلسا على الرمل الناعم الجميل. ولم

يتأخر «مساعد» في الكلام بل قال في الحال:

- والله يا يوسف ما دري ويش أقول.. هي قصة.. ودك تسمعها والا لا.

- قول بس واترك عنك.

- شفت قبل يومين قمر ما لها مثيل بعنيزة.. و..

قاطعه يوسف: ردينا على هذي السواليف اللي ما تخلص.

أكمل مساعد: يا ولد الحلال اسمع بس وخليني أكَمل.

- كمل يالله..

- مِن يوم ما شفت هالقمر وأنا حاس إني تقول مجنون. لا ودي بالأكل ولا بالنوم ولا بشيء. ويوم سألت عنها قالوا لي إنْ إسمها «سارة» وهي من بيت الماضي الكبير.

قال يوسف: ما قلت لك اترك هالسواليف عنك. إنت وين وبيت الماضي وين! هذولا كبار وإنت صغير بعدك.

- لكن يايوسف أنا ابتسمت لها وكأنها شافتني زين.

- وحتى ولو افترضنا إنها شافتك مملوح.. تصدق عاد إنْ هِي تبِيك.. بعدين أنا سمعت من أمي إنها توها رفضت ولد «رغيب» هذولا التجار.

- طيب وِشْ خِسَرت إلِيْنْ جربت.

- خسارتك بتكون أكثر مما تتوقع.

- وِشْبِك علِيّ اليوم.

- أنا خُوَيك وتهمنى مصلحتك.

- المسألة تظن إنها إنهم أغنياء وتجار وأنا فقير؟!

- أكيد.. ولاتعتقد إنك إبِن أجواد وهم بعد وتبسط الموضوع .

- هَين أنا أعرف هذا.

- ما دامك تعرف عَجَل وِشْوَلوه هذا الهرج.

- شف نفسك الحين.. إنت لحد الحين تشتغل عند تاجر بالسوق وما عندك إلا شوية فرانكات وقروش ما تساوي شي.

- لكني ماني مستعجل وأمر الله إنْ شاء بهون.

- طيب غَير لنا السالفة.

هنا ابتسم «مساعد» واستعد للكلام وكأنه ينوى القاء خطبة:

- أبي أقول لك قصيدة سمعتها من يومين.. لا والقصيدة كتبها واحد يحب وحده إسمها «سارة» بعد، وحلوة بعد. اسمع بس:

«ولعتني بالغلا والحب سارة

دلهتني عن عنادير البناتي

وريــج ســارة تــقــل شــكــر في غــذارة

والا حليب بــكار عرب مسمــنــاتي

والمطــوع لي شــاف خــديــد سارة

صــفـط المصــحـف وجـاز عــن الصــلاة»

علق يوسف على القصيدة في الحال:

- والله القصيدة حلوة، بس لاتقول لي إنك ناوي تقصدها جدام أبوها ولا جدامها هي.. تراك ساعات تصير خِبِل.

- والله لو الود وِدي كان سويتها، لكن..

- قم بس خلنا نصلى المغرب.

بدا الحزن مخيماً على وجه «مساعد» إلا أن «يوسف» لم يهتم لذلك، فقد خبَر هذا الصديق منذ زمن وعرف سواليفه وعشقه الذي لاينتهي!

استيقظت عنيزة صباح يوم ٦ سبتمبر ١٩٣٩ على شائعات وأخبار وهرج ومرج، وتواصلت حتى دَب الرعب بين تجار المدينة الذين راح بعضهم يقفلون أبواب دكاكينهم في السوق بسرعة.

لم يعرف أحد ما هي الحكاية بالضبط، ولا سمع أحد شيئاً مؤكداً. كان الشيء الوحيد أن رجلاً كان في مجلس أمير عنيزة وسمعه يقول لرواد المجلس إن حرباً قامت وإن برقية وصلته بهذا الخصوص من الرياض. أما باقي التفاصيل فلايعرفها أحد.

خلا السوق تقريباً من المارة وذهب الكثير من الناس إلى بيوتهم خوفاً من حرب قد تصل عنيزة!

في أحد ممرات السوق شبه المقفل راح رجل كبير في السن يتحدث مع صاحبه قائلاً: سمعت إنّ ابن رشيد رجع وناوي يهجم على الرياض ويبغي عنيزة بعد.

عند دكان وحيد مفتوح تجمّع بعض التجار، فقال أحدهم: اللي عرفت إنّ الإنكليز هجموا على الحجاز، والله يستر يا جماعة.

رد شاب من الجالسين: هذا كلام مهوب معقول. هتلر هو اللي احتل بلدة في أوروبا وناوى يحتل العالم.

وضحك الجميع عندما قال تاجر: وناوي يجينا عنيزة.

وكثرت السواليف والروايات عما حدث، وكان آخرها ما قاله «ولد بن عبود» الخياط بالسوق: والله يا جماعة تراني ماني بخايف على شي. ما عندي إلا هذا الدككين الصغير وإذا يباه هتلر خله ياخذه.

قبل الظهر بقليل أعلن صاحب الدكان الذي كان التجار يجتمعون عنده: ترى الشاهي خلص وسواليفكم ما قضت.. يا الله عاد نْسكر الدكان.

بعدما صلي الناس الظهر بدا السوق وكأنه مهجور

وأن الحرب قامت فعلاً ليس في أوروبا ولكن في نجد ولكن تحديداً في عنيزة.

في بيوت عنيزة سيطرت سواليف وأخبار الحرب على جلسات الغداء وساعات القليلولة. وفي العصر بين البساتين ورمال النفود الناعمة كانت الشائعات والخوف واحتمالات الهرب هي المسيطرة على كل الكلام .

لكن عندما هبط الظلام على المدينة جاءها الخبر اليقين. ففي مجلس بيت «المقبالي» دخل «يوسف» وصديقاه «شايع» و«مساعد» علي «العم سعود»، الذي كان منهمكاً في إعداد وتهيئة مؤشر الراديو الضخم الذي اشتراه لتوه من العراق، لكنه لم ينس في غمرة هذا الانهماك أن يسلم على الحضور ويحييهم بحرارة كعادته: يا الله حَيّهُم.. يا الله حيهم.

لم يكن قد وصل بعد أحد الى المجلس. وكان أحد الخدم منهمكا هو الآخر في إعداد القهوة للرواد المتوقع وصولهم بعد لحظات.

كان الصمت هو سيد الجلسة حتى ولو جاء رواد آخرون.

وقطع «العم سعود» ذلك الصمت بأن رفع صوت

الـراديـو إلى الحد الأقصـى، وأخـرج مـن جـيـبـه ساعته ذات السلسلة الفضية، وطالع الساعة بتمعن شديد.

إنها الثامنة.. نشرة الأخبار في إذاعة برلين العربية.

كان الحضور مبهورون لدقة الرجل في إظهار الإذاعة ومعرفة الوقت بالضبط.

وكلها ثوانٍ فإذا بصوت المذيع العراقي الشهير «يونس بحري» يولول وهو يقرأ بداية نشرة الأخبار: «لقد بدأ الهجوم على بولونيا.. القوات الألمانية الظافرة تتقدم وتكتسح، هذه بداية تحرير أوروبا».

بدا هذا الكلام غريباً على أهل المجلس وعصِياً على فهمهم. لكن «العم سعود» بعد أنْ سمع بقية النشرة وشرب فنجان القهوة الأول تطوع للشرح.

قال: يمكن يا جماعة سمعتوا اليوم الشائعات والهرج اللي صار بالسوق اليوم. ترى كان كله خرابيط وما به شي عدل أبد.

رد «يوسف»: لكن الناس خافت يا عم وما تدرى ويش اتسوي.

واصل «العم سعود» كلامه: إنت صادق يا يوسف.. لكن مثل ما سمعتوا بآذانكم إنْ الحرب قامت في

أوروبا واللي بداها هذا الألماني هتلر أبو شنب صغير.

وضج المجلس بالضحك بعد سؤال من أحد الشيبان: هوّ جانا عنيزة من قبل هذا هتلر؟

وبعد أن هدأت القهقهات، قال «ناصر»: ومن هذا هتلر ويش يبي. قال «العم سعود»: اللي سمعناه عنه ماهوب شين.. يقولون إنه ما يحب اليهود وإنه يحب العرب لكنه شرّي بالحيل.

وتدخل «مساعد»: طيب وشو لزوم هالحرب.. توه الدنيا خلصت من حرب كبيرة قبل عشرين سنة يردون مرة ثانية بحرب!

وقال أحد الرواد: يقولون إنْ هتلر هذا ما يبغي يحرر العالم كله ويبقي بس على الأجناس اللي يحبهم، والأهم طبعاً إنه يقوي الأمة الألمانية!

ودارت القهوة وارتفعت ألسنة لهب النار بالمجلس العامر، ومعها لم تهدأ الاسئلة رغم قلة الإجابات ودقتها وندرة اليقين.

وبين كل ذلك قال شيخ حكيم من الجلوس بكلام معقول: في ظني إنْ هذي الحرب إذا ما جاتنا فما لنا شغل بْها، لكني أتمنى إنها ما توصل نجد، ترى حنا ما قاصرين مشاكل بعد.

واختُتِمت الليلة بتعمد واضح من أحد الشيبان بأن يختمها بطرفة كان قد خبأها حتى النهاية، حيث قال: إذا كان الكلام الذي تقوله عن هذا هتلر صحيح يا عم سعود من إنه يحب العرب ويكره اليهود فأنا مستعد أن أرسل له كسوة زينة من بشت وغتر وعقال ونعال.

ضج المجلس مرة أخرى بالضحك، وخرج الجميع وقد بدا عليهم الكثير من الاطمئنان بعد شائعات الصباح المقلقلة، غير أن قصة إهداء كسوة لهتلر راحت عنيزة تضحك عليها أيام وأيام .

في اليوم التالي بدت المدينة أقل توتراً وأكثر هدوءاً. فالسوق ودكاكينه الكثيرة واصلت عملها في البيع والشراء، والناس ذهبت إلى أعمالها كالمعتاد. وبجانب ذلك اختفت الشائعات والأقاويل التي راجت بالأمس، وعلِم الأهالي بنشوب الحرب وبداياتها المثيرة، رغم أنهم لم يعرفوا أسبابها ولا أهدافها، فقط جاءهم اليقين من بعض الراديوهات القليلة في مجالس بعض التجار.

وساهمت نكتة الشايب التي وعد فيها بإعطاء الزعيم الألماني كسوة في تخفيف التوتر الناشىء عن الأخبار وقلق الناس منها. فقد كانت النكتة حاضرة

في مجالس الرجال والحريم وأحاديث السوق والحقول وكل مكان. لكن النكتة الشهيرة والهدوء لم يمنع الناس بعد أيام قليلة من معاودة القلق الذي توقف على ما يبدو مؤقتاً في هدنة قصيرة.

فمع مرور الوقت ازداد إنصات الناس لأخبار الراديو من برلين ولندن وغيرهما أو التي يستطيعون سماعها. وكانت كل الأخبار الواردة لاتبعث على السرور، بل تزيد الخوف وتفاقمه من امتدادها إلى الجزيرة العربية بعد فترة.

ووجدت الناس في الراديوهات ملاذها لليقين أو على الأقل للأخبار الصحيحة، إلا أنها أيضا كانت تسمع ولاتعلق، وتترقب ولاتعرف كيف تتصرف. ترى في الأخبار العسكرية خصوصاً ما يجعلها تصاب بالرعب ولاسيما مع تقدم الألمان الهائل والسريع.

كانت الأخبار لاتتوقف، فكل يوم هناك أخبار جديدة وقتلى وجرحى وهزائم وانتصارات، بل بدا الراديو وكأنه يُسمِع الناس البسطاء أصوات المدافع والقذائف وأزيز الطائرات.

ومع تواتر أنباء الحرب وانتشار دخانها الكثيف، أظهر الأهالي قلقهم المتزايد، بالتدافع إلى السوق والتسابق إلى تخزين المواد الغذائية من أرز وسكر

وشاي وقهوة وغيرها وملء بيوتهم من تلك الأكياس الكبيرة.

هذا ما فعله كل التجار والقادرون، اما الفقراء وهم الأكثرية الساحقة فلم يفعلوا سوى التأمل والقلق وانتظار الفرج من الله.

ومع هذا التخزين زادت الأسعار طبعاً، ولولا استمرار قوافل «العقيلات» الشهيرة التي تنقل البضائع بين نجد والعراق والشام وانتظامها لتعب الناس وزاد جوعهم.

لكن كيف يأتي الجوع إلى عنيزة وهى محاصرة من كل الجوانب بهذه الغابات الجميلة من النخيل؟ كيف يأتي الجوع إلى هذه المدينة العريقة وهي التي أطعمت المدن والقرى الأخرى يوم كانت في أشد الحالات جوعاً؟ هذا الجوع لا مكان له هنا مهما تدهورت الأحوال ومهما كان عيش الفقراء على التمر والخبز الحاف.

حول هذا الكلام يقول كل الفقراء في عنيزة وبثقة إن مدينتهم لاتعرف الجوع ولا الخضوع، لاتعرف إلا الكبرياء والشجاعة طوال عمرها. لكن الجديد هذه المرة هو الحرب، وهي حرب لم يفهموها ولم يسمعو عن قادتها، بل إنهم لم يسمعوا حتى عن أسلحتها من

بنادق سريعة ودبابات وصواريخ. إنها تبدو مدمرة ولابد يوماً وأن تصلهم.

الذي وصل كان شئياً مختلفاً ومفرحاً لأم مساعد.. تلك المرأة التي كانت حديث السوق يوماً حين طلبت تفصيل ثوب لزوجها الغائب، وهي نفسها والدة مساعد صديق يوسف. فقد وصلتها بعد قيام الحرب بشهرين تقريباً رسالة من زوجها بالعراق عن طريق مسافر وصل لتوه إلى عنيزة.

لم تتأخر «أم مساعد» في الخروج مسرعة من بيتها متجهة إلى مدرسة «النويصر» الخاصة والمشهورة في المدينة. وحالما وصلت في الضحي نادت على الحارس، وطلبت منه أن يُحضِر إليها أحد الاولاد الشاطرين ويقرأ لها الرسالة. ولم تنتظر طويلاً فقد جاء أحد الأولاد مسرعاً، وفي الحال راح يقرأ عليها الرسالة:

«إلى الزوجة الغالية أم عيالي العزيزة أم مساعد.. الله يحفظها آمين..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أرجو أن تكوني وعيالي جميعاً ووالدي العزيز أطال الله في عمره، أرجو أن تكونوا في صحة كاملة ونعمة من المولي شاملة، محبكم بخير يحمد إليكم الله على حلو نِعَمِه

ومر بلواه.

أما بعد فقد مضت مدة طويلة لم أكتب لكم مكتوب، والسبب انشغالاتي بالزبير، ولكنني خفت عليكم كثيراً عندما سمعنا عن قيام الحرب، وإن هذا هتلر الملعون ناوي يحتل العالم. وزاد خوفي عليكم إني من زمان ما سمعت أية أخبار من عنيزة الحبيبة، اللي أنا ولهان كِثِير عليها.

دوشة الحرب هنا بالعراق كثيرة، والناس خايفة والإنكليز هنا خايفين أكثر منهم.

الجماعة وعيال الحمولة من تجار نجد هنا ما هم مقصرين علينا. وترى وصلني ثوبك من شهر وسمعت قصته، وأنا أعرفك شُجاعة ولكن لاتُغضبين أبوي. وترى هذا ما له داعي فنستطيع أن نفصل ثياب بالزبير.

وأهديك خالص سلامي ومحبتي لك وللوالد الكريم وللأولاد والأهل جميعاً في عنيزة، ومنا يهدونكم السلام جميع الإخوان، والله يحفظكم.

من محبكم المخلص

أبو مساعد

حرر في الزبير ٢٩ أكتوبر ١٩٣٩».

وفور انتهاء الولد من قراءتها قبلت أم مساعد
الرسالة أكثر من مرة وحضنتها بين صدرها وقلبها.
ووقف الولد يطالعها بدهشة وهو ينتظر هديته.
عندها أخرجت من كيس صغير تحمله حلوى «كليجا»
وأعطته إياها. وركض الولد «عدنان» إلى داخل
المدرسة مسروراً بتلك الهدية.

أطلقت أم مساعد» ساقيها للريح راكضة نحو بيتها
وهي تحتضن رسالة زوجها المغترب. ووصلت إلى
بيتها في دقائق قليلة رغم طول المسافة بين المدرسة
والبيت.
دخلت بيتها وهي تلهث ووجدت أولادها «مساعد»
و«هشام» والصغيرة «ليلي» جالسين في انتظارها.
ولم تهتم الأم بانتظارهم الطويل بل راحت تريهم
الرسالة وهي مبتهجة، وتصرخ: هذه رسالة من
والدكم في الزبير بالعراق.. رسالة منه.
وعندما لم تجد لديهم أي اهتمام، راحت تقول لهم
بعض ما فيها من شوق وسلام ومحبته لهم.

كانت تروي بفرح، إلا أن أولادها لم يبالوا بالرسالة ولا على حتى ما تردده هي من كلام.

ولم تلبث أن تستغرب منهم هذه اللامبالاة، فقالت بغضب:

- ما لكم يا أولاد ما كأنكم فرحانين مثلي؟

رد «مساعد»: هل أرسل والدي نقوداً؟

لم تتوقع الأم هذا السؤال، لكنها ردت بحزم:

- إن شاء الله قريب.

لم يعجب هذا الكلام «مساعد» قائلاً:

- بقي له سنة كاملة في الزبير ولم يبعث حتى نقود قليلة! لماذا سافر إذاً؟

- ياعيالي.. اصبروا ما تدرون وش ظروف أبوكم المسكين وشلون هُوّ عايش.

- لكنه وعدني إنه يوديني معه إلى الزبير حتى أتعلم القراءة والكتابة.. والحين راحت سنة ولا وفى بوعده.

- أنت تعلمت القرآن يا مساعد والحمدلله هذا يكفي.

- ترى القرآن يا أمي في هذا الزمن ما يكفي.

- استغفر الله يا وليدي.

- ما قلنا شي ولا كفرنا.. بس أنا كبرت وأبي أتعلم

مثل الكثير من أهل عنيزة اللي راحوا البحرين والعراق والكويت ولا حتى الهند.

- الهند.. وش بِك انهبلت!

- والله أكبر تجار عنيزة ما جتهم الثروة إلا من ها الهند.. إنتي ما تدرين عن شي يا أمي.

- إن شاء الله أبوك ما بيتأخر عنك بشي.

- أنا ما أبي تعليم بس.. أبي أتزوج بنت الحلال بعد.

هنا استغربت الأم وقالت:

- أنت يا وليدي للحين تشتغل بالسوق وعلى قد حالك تراك ما تقدر.

- باقدر إذا تعلمت شوي وأرسل لي أبوي شوية فلوس.

- اطلب شوي شوي يا مساعد علشان أبوك يستطيع. بعدين لاتِنْس إنّ أبوك وراه عيال غيرك.. موهب بس إنت.

- هَين.. هَين.. أدري بس أنا أبي أبوي يعرف وش حِنا نبغي وعلى الأقل يساعدنا.

وطال الحديث وكثُر، وشعرت الأم أن ابنها مساعد لم يكبر فقط، بل كبر إلى درجة أنه يتحدث كالرجال الواثقين من أنفسهم، بل أصبح كبيراً إلى درجة أنه أصبح عاشقاً ولهاناً، ولمن؟ لبنت الماضي الجميلة

«سارة». أما هشام الصغير وليلي فلم ينطقا بكلمة، كانا يستمعان إلى جرأة مساعد وردود الأم المدافعة طوال الوقت.

في صباح اليوم التالي ذهبت «أم مساعد» إلى المدرسة نفسها وطلبت من الحارس أن يرسل لها الولد «عدنان» ذاته، ليكتب لها رسالة إلى زوجها.

جاء «عدنان» مسرعاً إليها ومبتسماً وقال لها: آمري يا أم مساعد.

أخبرته أنها تريد أن يكتب لها رسالة، فأحضر ورقة وقلماً، وراحت تمليه وهو يكتب بخطه الجميل:

«لحضرة الزوج الحبيب أبو مساعد.. الزبير ـ العراق

رفع الله مقامه في الدارين آمين.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فالمُحِبة زوجتك المخلصة بحمد الله كما تحب، وكل الأولاد بخير ويسلمون عليك ووالدك الكريم كذلك.

فرحت كثيراً برسالتك وقرأها لي ولد بالمدرسة بعنيزة، وحسيت بابو مساعد وكأنك تكلمني، أو كأننا جالسين سوا في الدار.. والله ما دري وش أقول لك.. لكن أنت تعرف إننا مشتاقين لك وودنا اليوم قبل

بكره تجينا عنيزة ونفرح بك ويفرحون بك العيال.

بس ودي يا بو مساعد إنك تحاول أن ترسل لنا شوية فروش.. على ما تستطيع. صحيح أبوك ما هو ما قصر معنا لكن إنت تعرف الحال والأولاد وغلاة الأشياء كلها.

منا الأولاد ووالدك يسلمون عليك، وننتظر رسالتك الجاية إن شاء الله وإنت بخير وبسلامة، وسلم لنا على الجميع بالزبير.

المحبة

أم مساعد

حرر في: عنيزة ٢ نوفمبر ١٩٣٩م».

عادت «أم مساعد» إلى بيتها وهي حزينة هذه المرة، ورجع لتلميذ «عدنان» وهو أكثر حزناً عليها.

بعد نهاية الفصل سأل المدرس الفلسطيني عدنان عن حزنه، فأخبره عن رسالة «أم مساعد» التي كتبها.

قال المدرس الفلسطيني عبدالكريم: ولكنك تقرأ وتكتب رسالة أو رسالتين كل يوم تقريباً.. فما بالك مع هذه الرسالة؟

رد عدنان: هذه الرسالة يا أستاذ.. الأم فيها محتاجة وتريد نقود، وزوجها في الزبير وهي كما يبدو تحبه كثيراً.

وأكمل عدنان: هل تعرف يا أستاذ.. أن هناك نساءً ورجالاً يتهافتون علي لقراءة الرسائل لمجرد أن يعرفوا أن المرسِل لهم قد أرسل مع الرسالة مبلغاً من المال فقط. فقبل أسبوع مثلاً جاءت امرأة فرحة جداً وقالت اقرأ الرسالة، واذا بها شيء فسوف أعطيك اللي تبي.

كانت الرسالة من البصرة.. وقرأت أشواق وسلامات الزوج وسرده لأخباره وو.. وفجأة قاطعتنى وقالت بغضب: شِف يا وليدي.. إذا الرسالة ما بها «وتصل مع الرسالة نقود» فلاتكمل، وأكملت الرسالة ولم أجد أن الرجل قال إنه أرسل نقوداً. فقلت لها الحقيقة.

فردت عليّ: بس خلاص خل الرسالة معك.. ما أبيها!

قال المدرس: أإلى هذه الدرجة؟

أجاب عدنان: الناس يا أستاذ عندنا فقراء، وما أحد يتغرب عن عنيزة إلا وهو محتاج. مرة يا أستاذ كتبت رسالة من امرأة فقيرة لولدها بالكويت، طلبت منه أن يرجع إلى ديرته بأسرع وقت، والسبب كما قالت لي إنها لقت له زوجة صالحة وبنت حلال وما تبيه يجلس ويأخذ حرمة من الديرة اللي جالس بها.

قال الأستاذ عبدالكريم: والله ياعدنان صارت عندك سواليف كثيرة مع هذه الرسائل. بس أبي أقول لك شيء. ترى اللي عرفته الحين هذه أسرار الناس، وأنت تعرف أن الأسرار ما تنقال أبداً.

- أكيد يا أستاذ.. وأنا ما قلتها إلا لك فقط، فلا تخف ولاتوصى حريص.

عندي بعد قصة رسالة ثانية.. أخليك تضحك، واحد كتبها وهو بالهند قبل شهرين يقول لأخيه: ترى الحرب قامت ياخيي.. وإذا ما دريتوا فخبر أهل عنيزة عنها وقل لهم يستعدون. ترى هذه الحرب ماهى بهينة! ومت من الضحك وأنا أقرأها على أخيه الذي ضحك هو الآخر وطلب مني أن لا أقول هذا الكلام لأحد!

وأكمل عدنان كلامه بثقة: لكن خلينا من الطرائف يا أستاذ.. تراني كتبت وقرأت رسائل كثيرة، كلها غم.

قاطعه الأستاذ: مثل؟

قال عدنان: مثل رسالة مرة جات حق حرمة كبيرة، ويبدو أنها جالسة بالبيت لوحدها، والرسالة من صديق لولدها اللي يعيش بالهند، والرسالة من كلكتا. وبعد السلام والتحيات قال لها صديق ابنها أن ولدها أصيب بالسل وهو جالس الحين يتشافى،

وهو طلب مني أن اكتب لك الرسالة، لكنه إن شاء الله يكون بخير مع الوقت.

والرسالة غريبة يا أستاذ، حيث يقول هذا المرسل أن ولدها عندما شعر بعدم استفادته من المستشفي نقلوه إلى مكان خاص وجلبوا له سريراً ووضعوه في قمة جبل للعلاج، كما وضعوا عنده خادم هندي خاص لرعايته والطبخ له وغسل ثيابه. ولكن الأطباء طلبوا منه البقاء على هذا الحال لشهور حتى يقرروا هم متى يتغير وضعه.

وبكت المرأة المسنة أمامي بحرقة حزناً على ولدها، لكننى حاولت أن أخفف عنها وأقول لها إن هذا معناه أنه سيكون بخير، ولو أنه مريض جداً لَما كتبوا لك رسالة وشرحوا وضعه الصحي.

غير أن العجوز، واسمها «أم زيد»، لم تطمئن لكلامي وطلبت مني أن أحضر تلميذاً آخر يقرأ لها الرسالة، وعندما سألتها عن السبب، قالت وهي تمسح دموعها: أخاف إنه مات وأنت تخش عني!

حلفت لها بالله العظيم بأننى لم أكذب في شيء، بل قرأت الرسالة كما هي رغم صعوبة خطها، لكنها أصرت على أنْ أُحضِر لها تلميذاً آخر يقرأ الرسالة مرة أخرى.

ورغم كل محاولاتي إلا أننى أشفقت على تلك العجوز، وأحضرت صديقي في الصف وقلت له أمامها: مِن فضلك اقرأ هذه الرسالة حرفيا.

وبالطبع فقد قرأ صديقي الرسالة كما هي. وما أنْ أكمل حتى شعرت بالعجوز وقد ظهر عليها بعض الاطمئنان والراحة.

وأضاف عدنان: غيرُ هذه العجوز حضر عندي في أحد الأيام أب وولده وقالا إن عندهما رسالة ينويان إرسالها إلى البحرين. وعندما سألتهما عن ماذا يريدان أن أكتب. قالا: وتحلف على القرآن أنك ما تْعَلم أحد. قلت: أحلف.

قالا أُكتب: «إلى حضرة العم العزيز مشعل بن عجلان أطال الله في عمره.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وبعد، فنرسل لك أيها العم العزيز هذا الخطاب ونأمل من الله أن تكون بخير وبصحة جيدة، وهنا الجميع بخير وبصحة.

عمنا العزيز . لقد قامت بنت الخالة حصة بسرقة الكثير من الذهب والنقود من بيتنا بعدما عِلمت أن خالتها لن يكون لها نصيب شرعي من الميراث من المرحوم بومحمد. ونحن عرفنا بذلك وطلبنا منها أن

تعيدها ولكنها أنكرت، ووقف معها أخوها رشيد.
ونحن ما ودنا أن تكون الأمور أكثر من هذا. وبغيناك طال عمرك تقوم بالذي تستطيع عمله، لأننا نعرف احترامك عند هذولا اللي ما يستحون على وجوههم.
ومثل ما تعرف إننا ما ودنا بالفضايح والمشاكل، وكلمنا بعض الأقرباء الذين كلموهم ولكن بدون فائدة. في النهاية قلنا ما لنا إلا الله ثم أنت ياعم.
ومنا الجميع يهديك التحيات والسلام، ومنا السلام على كل أهل عنيزة بالبحرين».

قال الأستاذ عبدالكريم: سواليفك ياعدنان ما تْخلص.

فرد بابتسامة رضا.

لثلاثة أيام متتالية ليل نهار لم يتوقف هطول المطر الغزير على عنيزة. في الساعات الأولي استبشر الناس خيراً، فالمطر خير وما يأتي منهُ خير وبركة.
كان المطر قد بدأ مع منتصف الليل والمدينة نائمة لاتعرف شيئاً، ولكن مع الفجر تباشر الناس.

وفي اليوم التالي حيث لم يعد الأهالي يرون شمساً ولا نوراً طوال اليوم. كانت الازقة قد غرقت ماءً، أما الحقول والمزارع فقد روَت فيها النخيل والمزروعات حتى شبعت.

ارتبكت الحركة في المدينة لليوم الثاني، فالأمطار لم تتوقف والسوق شبه معطلة، والمجالس مفتوحة لكنها

تعاني من تدني الزوار الماكثين معظمهم في بيوتهم .

في كل ساعة كان الجميع يتوقعون أن يتوقف المطر أو على الأقل يخف هطوله قليلاً، فتمطر السماء ماءً يسيراً، رذاذاً، لكن على عكس كل التوقعات زاد انهمار المطر مع حلول وقت العصر، وفي المغرب جاءت معه البروق والرعود واشتد البرد.

في العادة فإن الشتاء يحل على عنيزة مع منتصف شهر أكتوبر من كل عام، غير أنه هذا العام تأخر على غير عادته. ولذلك جاءت الأمطار هذه المرة بكثافة ولوقت أطول حتى تعوض عن هذا التأخير!

هذا يبدو في نظر الكثيرين من الأهالي تفسيراً منطقياً، لكن تلك أسباب لايعرفها إلا الله.

عند اليوم الثالث كان المطر يسقط على عنيزة بغزارة، ولم يتغير شيء في الطقس على الإطلاق. فالمطر أغرق المحاصيل وتحول إلى شبه سيول خارج المدينة، والكثير من جدران البيوت الطينية قد انهارت ولم تعد تستطيع الصمود أكثر من ذلك. أما السوق الذي أغلق في اليوم الثاني فهو ينتظر كارثة وخسائر كبيرة.

الحركة ما تزال كما هي متوقفة، والناس إما مختبئون في بيوتهم الطينية أو يحاولون إعادة ما

هدمه المطر من بيوتهم أو بيوت جيرانهم، والسير والتنقل بين الطرقات أصبح من أصعب الأمور وأشقها!

بعض الناس قالوا: لانريد أن يتأخر الشتاء علينا، ورفعوا أكُفهم إلى السماء ودعوا: فليجعله الله قادماً في موعده.

قبل أن ينقضي الليل كان المطر الغزير قد توقف هطوله بعض الشيء، ومع الوقت توقف نهائياً، وبعد ساعات الفجر الأولي كانت المدينة سعيدة بعودة الشمس ودفئها الذي طال انتظاره.

ثلاثة أيام لم تكن كالأيام. فعنيزة غارقة في الماء ويسبح بها كل شيء، لم يكن ينقصها إلا قوارب صغيرة لكي تعيد الحياة الطبيعية إلى المدينة. غير أن هذا القلق الذي ساد بين الناس في صباح اليوم الرابع، وهم خارجون يتفقدون الأضرار التي لحقت بهم، لم يجعلهم يتوقعون ان تتغير الامور في ساعات. فالدكاكين في السوق فتحت أبوابها إلا القليل منها التي أصابتها بعض الأضرار، والشراء والبيع مضيا بشكل طبيعي في محاولة لتعويض بعض الخسائر.

حتى المساجد التي تضررت أكثر من غيرها أقيمت فيها الصلوات الخمس وكأن المدينة لم يُغرِقها مطر.

وفي الحقول والمزارع كان الوضع مختلفاً، فالغرق كان أكبر والخسائر كانت أفدح. والفلاحون لم يباشروا العمل منذ هطول المطر وحتى اليوم. ومع تزايد انتشار الحشرات ونفوق بعض الحيوانات أصيب الكثيرون بالحمى.

كان «يوسف» هو أول المصابين بها، فقد أصر في اليوم الثاني من هطول المطر أن يذهب إلى مزرعة «المهرانية» رغم رفض والدته وشقيقته. ومع أنه لم يستطع العمل هناك على الإطلاق، إلا أنه بعدما عاد إلى بيته لدغته حشرة أو أصابه فيروس منتشر في الجو تسببا في إصابته بالحمى.

هذا هو اليوم الثاني ليوسف وهو راقد في البيت، لايقوى على شيء سوى النوم في الدفء ومحاولة تخفيض الحرارة عن جسده النحيف. ولايتناول طعاماً سوى التمر وشرب الحليب الساخن.

بعد العصر تسمع «أم يوسف» طرّقاً بالباب فتسأل عن القادم: من أنت؟

يرد الطارق: انا مساعد.. الله يمسيك بالخير.

- هلا ومرحبا.. حياك يا وليدي.

دخل «مساعد» واتجه فوراً إلى مرقد «يوسف» وقال له: ما تشوف شر.. سلامتك يا خوي. ترى عنيزة

كلها مسخنة فلاتخف وانا أخوك.

كان «يوسف» بالكاد يستطيع الكلام. فالحمى أقوى من الرد ومن حتى الجلوس. فكان يرد عليه ببعض الكلمات غير المفهومة.

وقال «مساعد» وهو يودع «يوسف»: والله كان عندي سواليف.. لكن ما هي بوقتها وإنت تعبان.. إن شاء الله لما تصحى.

وصارت النخيل في أوج جمالها وتألقها، وبالطبع فقد اخضر سعفها بعد هذا المطر الطويل. كانت النخيل وقت خروج «مساعد» من بيت «يوسف» تتباهي بنفسها أمام المارة. فهي الباقية وهي الجميلة، هي الصامدة، يذهب كل شيء، وتبقي هي حصار المدينة الأبدي، بل طوقها الرائع الذي لايعطي إلا الخير.

عندما وصل «مساعد» إلى منتصف المدينة وجد امراة عجوزاً هائمة على وجهها، كان المارة يتحاشونها ظانين أنها مجنونة أو أنها جُنت لتوها!

كانت العجوز» أم زيد» تحمل في يدها ورقة صغيرة وتصرخ بها للمساعدة. في البدء ظن «مساعد» أنها تحتاج إلى طعام أو مساعدة ما، لكنها قالت له: يا وليدي ما حد راضي يسمعني.. اليوم وصلتني برقية

ولا أنا لاقية أحد يقرأها رحت المدرسة لاقيتها مغلقة.

فرد «مساعد» في الحال: أبشري.. أنا آخذك إلى أحد يقرأها.

كانت هذه العجوز هي نفسها التي قرأ لها عدنان رسالة من صديق ابنها المقيم في الهند والمريض بالسل.

ولم يجد مساعد سوى مجلس «الشبلاوي» ليطلب من أحد رواده قراءة الرسالة. وبالفعل نادى على أحد الحضور من الشبان الذين يعرفهم وطلب منه قراءة البرقية للعجوز .

قال الشاب: ولكنها باللغة الإنجليزية.. أنا يا الله بالعربي أقرأ!

– ويش العمل؟

– مفي غير ما ندور على ولد الشبلاوي الصغير.

وبعد بحث طويل وعريض حضر ولد الشبلاوي، وراح يقرأ الرسالة في المجلس على مساعد وبصوت خفيض:

«من كلكتا إلى عنيزة..

ولدكم المصاب بالسل تُوفي قبل أيام.. لقد تم نقله من قمة الجبل إلى المستشفي لترتيب جثمانه. ينوى

أهل نجد في المدينة التكفل بدفنه في مقبرة المسلمين بالمدينة.. هذا ما نود إبلاغه.

كلكتا في ١٩ نوفمبر ١٩٣٩ م».

يُضطر «مساعد» وبعض حضور المجلس إلى إبلاغ العجوز بالخبر المؤسف فتصاب بالانهيار في الحال.

في اليوم التالي يقام العزاء في مجلسي الشبلاوي للرجال والنساء. وقد اتضح أن تلك العجوز لايوجد عندها من زوجها المتوفى سوى هذا الولد اليتيم، الذي ذهب إلى الهند وعمره لم يتجاوز الرابعة عشرة.

في مجلس الشبلاوي لم يكن أحد يعرف من يعزي من. فالمرحوم الشاب لا أهل له تقريباً، عنده عم في البصرة. وهذا هو كل ما يعرفونه عنه، ووالدته المسكينة تتقبل التعازي في مجلس الحريم لوحدها .

لم تُطِق العجوز هذا الموت وهذا العزاء، فماتت بعد أيام، لكنها دفنت في عنيزة بينما دُفِن ابنها في كلكتا.

لا شيء يؤذي أهل عنيزة سوى البرد القارص، فبينما تشعر المدينة وناسها أن شبهة التمرد تلاحقهم منذ سنوات طويلة عبر التاريخ، إلا أنهم عندما يجيء البرد يستسلمون له، بل ويعتبرونه السلطة الوحيدة التي لايقوون على مقاومتها والتمرد عليها.

والبرد في المدينة كما هو في مدن نجد قارص لايرحم، وشديد لايعرف الليونة، وقوى يدخل من كل صوب. لاتنفع مقاومته بجلسات النار ولا بالاختباء وراء البشوت والصوف والبطانيات ولا غيرها، لأنه يأتيهم من حيث لايعلمون.

العلم الوحيد في برد عنيزة هذه السنة هو أنه لاينوى الرحيل بسرعة، فالشتاء متأخر والمطر كذلك.

وإذا كانت العجوز «أم زيد» وابنها قد صارا في ذمة الله، فإن المدينة كلها هذه الأيام في ذمة البرد وقبضته القوية.

خارج البيوت تبدو الرياح القوية تعصف بأبواب ودكاكين السوق وسعف النخيل، وتصدر أصواتها وهي تطير مع الغبار. يتسرب البرد إلى العظام ويتغلل فيها فيبردها ويجعلها تهتز وتتصادم مع بعضها بعضاً.

في الليل حين تهدأ الرياح ويشتد البرد تحاول بعض مجالس المدينة المقاومة بالجمر المشتعل والحطب الذي تأكله النار، فيدفأ رواد المجالس ويجعل من سواليفهم أكثر متعة. لكن بعد أن تخمد تلك الجمرات في المجالس والبيوت، يتوحش البرد أكثر فينهش في الأجساد الضعيفة والخاوية البطون.

وفي تلك اللحظات يحاول الجميع أن يجلب الدفء من أي شيء. لكن لاشيء يدفىء كما تقول «أم يوسف» و«أم مساعد» سوى السجاجيد المفروشة على الارض للنوم تحتها حتى الصباح، خاصة إذا

ما كانت السجاجيد من الصوف الخالص، فذلك يعني النوم الهنيء.
في الصباح عند الضحى يهدأ البرد. أما إذا كانت الشمس مغطية عنيزة فذلك يعني دفأً لايوصف، ورحمة من الله ما بعدها شيء.
أحياناً يأتي المطر يوماً ويغيب عن السماء أياماً، لكنه بعد تلك الأيام الثلاثة كان يعاود خفيفاً وناعماً وأحياناً شرساً لينثر ماءه في الأزقة وفوق أسطح البيوت، ويعيد بهاء الاخضرار في الحقول. هذا الاخضرار الجميل وجده «يوسف» بنفسه عندما ذهب إلى الحقل بعد أسبوع من الحمى التي أرهقته.
في الحقل كانت الأضرار كبيرة وكثيرة، لكن همة الفلاحين وصاحب المزرعة كانت أكبر مما توقع. ففي اليوم الأول بعد عودته كادت الأمور تعود إلى ما كانت. وهكذا لم يغير لا البرد ولا المطر من بهاء «المهرانية» وجمالها.
وفي سوق عنيزة كان الأمر كذلك، بل ربما أفضل من وضع المَزارع والحقول، غير أن الأهم هو الحديث المسيطر بين التجار والباعة والمارة عن قرب رحيل قوافل «العقيلات» الشهيرة إلى الشام.
كانت الأحاديث تدور حول قيامها برحلة قد تتجاوز

أربعة شهور وربما أكثر، وأن هناك البعض من الشبان الصغار في عنيزة تركوا أشغالهم في الحقول وقرروا الالتحاق بها. لكن التساؤلات التي دارت في المجالس بالليل ركزت على من أين أتى هؤلاء الشبان الفقراء شبه المعدمين بالنقود للجَمالة تكلفة لرحلتهم؟! بعضهم روى أن «محيسن» مثلاً وهو ابن «المرويد» عرض على والده الالتحاق بالعقيلات، لكن والده قال له إنه لاتوجد عنده نقود لإعطائها للجَمالة. واحتاروا لبعض الأيام عندما لم يجدوا في بيتهم شيئاً حتى لبيعه، فقرر «محيسن» الذهاب معهم على رجله وأنْ يشتغل مع الجَمالة ويساعدهم في تحضير القهوة ونصب الخيام وسقي الجمال وغير ذلك. فرضي «المرويد» بذلك عندما وجد حماس ابنه الشديد.
أما الآخرون كما تقول روايات المجالس فكل فقير دبر حاله، فمنهم مثلاً من قال لهم إنه مستعد أن يكون حامياً، أي أن يغامر بنفسه ويتقاتل عندما يحاول اللصوص وقُطاع الطرق التعرض للقوافل ومحاولة نهبها.
لم تكن قوافل «العقيلات» قوافل تجارة فقط، فقد كانت تعني عند أهل عنيزة بالإضافة إلى ذلك

قوافل أشواق وسلامات من المغتربين من أبنائها في الخارج، فهناك عدد هائل من الرسائل تجري كتابتها مع سماع أخبار سفر القوافل، وهناك الكثير من التوصيات التي تقال لهذا أو ذاك من أفراد القوافل توصي على أحد في فلسطين أو الشام أو الأردن أو حتى سيناء بمصر.

وتتنقل «العقيلات» بين مدن الشام وغيرها بأوراق مرور بسيطة، وأحياناً يدخل الكثير منهم تلك البلدان ويخرجون وهم على جمالهم بدون ورق ولا شيء آخر.

وكل عنيزة تعرف أهل «العقيلات»، فهم الرجال الشجعان المغامرون والأقوياء البنية والمتدفقو الحيوية ذوي النظرات الحادة والصارمة. وهم مشهورون أيضاً بأنهم الوحيدون الذين يستطيعون العيش تحت وهج الشمس لأشهر طويلة وتنفس الهواء المغبر طوال الوقت.

كانت الحملة على أهبتها للتحرك والمسير، والناس يترقبون تجَمع الجمال خارج المدينة، ووصول البضائع إليها، بينما يعقد التجار الصفقات مع أصحاب العقيلات ويطرحون ما يريدون جلبه من بضائع من المدن العربية، ويشرحون الأصناف التي

تحتاجها أسواق عنيزة.

وفي خضم هذه الاستعدادات الكبيرة والضخمة التي تستمر لأيام، تتواصل الرياح القوية وبعض الأمطار المتفرقة هنا وهناك، علاوة على البرد القارص.

في بيت الماضي يكون الأمر مختلفاً بعض الشيء، فالبنات سمعن مثل غيرهم عن قوافل العقيلات، ولذلك قررن الاجتماع بأبيهن وطلب ما يُرِدْن من اقمشة وأمشاط وكُحْل وعباءات وسجاجيد وحلويات وغيرها.

فسارة الجميلة طلبت مرآة جديدة، والأخت الأصغر قالت إنها ترغب في سجادة صوف لغرفتها، وكان «الماضي» الأب يسجل طلبات البنات، بينما الأم تضحك منتظرة دورها.

عندما جاء دور الأم قالت له بحماس: أريد حلي وذهبان.. ترى البنات ما خلو لي شي.. وإنت تعرف حِنا حريم نبغي الذهب وما نستغني عنه.. والبنات وأنا أم عيالك تعرفهن عنيزة بأن أبوهن تاجر، إذا مَهوب أكبر تجار البلد.

رد الماضي: زين.. زين أنا ما قلت شي.. سجلت كل ما تَبُون وما يصير خاطركم إلا طيب.. باروح

للعقيلات بعد صلاة المغرب وأقول لهم كل طلباتكم.. سَمي بعد.
- سم الله عدوك.
وفعلا وبعد المغرب كان «الماضي» يشرح لأحد رجال العقيلات الكبار الذي يعرفه منذ زمن طلبات بناته وزوجته، فبعضها يُجلَب من غزة وبعضها من دمشق وغيرها من لبنان. وعندما اتفق معهم على الثمن أعطاهم عربوناً مقدماً وسلم عليهم وغادر المكان.
لم يتبق على رحيل قوافل العقيلات سوى يومين، والحملة على أشُدها وأخبار الحملة تعرفها كل عنيزة، بل إنها ما تزال حديث المجالس والبيوت، فيما النساء اللواتي سمعن عن طلبات زوجة وبنات «الماضي» رحن يحسدنهن على هذا الدلال وهذا العز. وهذا الحسد يتحول أحياناً إلى غيرة وربما تكون قاتلة خاصة من بنات التجار رغم قلتهن.
وأكثر المدينة تتمنى لكن الكثيرين لايستطيعون سوى إطلاق الأمنيات والأحلام. فقبل ليلة من رحيل العقيلات تنام الكثير من النساء والأطفال والشبان والفتيات على أحلام غير عادية، فالنساء والفتيات يحلمن بالعقود واللؤلؤ ومعدات التجميل والعباءات والأقمشة، وكل شيء يُجلَب إليهن من تلك البلدان

البعيدة. والشبان يحلمون بالهجرة ورؤية تلك المدن التي كثيراً ما سمعوا عنها وعن تحضرها. أما الأطفال المساكين فلاينطقون بشيء عندما تتحدث أمهاتهم عن كلمة «العقيلات» سوى: حلاوة.. حلاوة.
في عصر يوم رحيل قوافل «العقيلات» كانت قد أكملت استعداداتها، والرجال بدَوا وكأنهم ذاهبون لحرب. وكان من حسن حظ القوافل أن الشمس قد أدفأت عنيزة منذ الصباح وحتى العصر، ولم يكن هناك من مطر، بل حتى الرياح تقلصت شدتها وخفت برودة الطقس أيضاً.
قبل المغرب بقليل زحف الناس خارج عنيزة للالتقاء بالعقيلات قبل رحيلهم. كانت النساء يتقدمن الرجال، والرجال يصطحبون الأطفال. كانت لحظات وداع حزينة وأوقاتاً لهدر الدموع على الأحباب والأبناء الذين ركبوا جمالهم وتأهبوا للرحيل. وبينما راح الرجال يلوحون لأبنائهم وأصدقائهم ويقولون بصوت عال: لاتنسوا الرسايل يا عيال.. اتحملوا بأنفسك .. ترانا ننتظركم بسرعة، كانت النساء في المقابل يقبلن أيادي أبنائهن ويبكين بحُرقة ويتمنيْن أن لاتمضي القوافل بل أن تحدث معجزة ما وتتأخر أو لاتذهب أبداً.

ومع انطلاق القوافل زادت تلويحات الوداع ونحيب الأمهات وصراخ الأطفال. كانت بعض النساء يمسكن بأيدي أبنائهن ولايرغبن في إفلاتها، بل راحت بعضهن في شد الأيادي في حالة هستيرية رافضة لشروع الجمال في التحرك.

مع انتشار غبار انطلاق الجمال اختفى كل هذا المشهد الحزين، فقد كانت الجمال قد قطعت مسافة لا بأس بها، وكان الرجال عن توقفوا عن تلويحات الوداع. كانت النساء مثل جرحي الحرب يلممن انفسهن ويتقفدن أمهاتهن وصديقاتهن اللواتي سقط بعضهن على الارض، وغيرهن أُغشِي عليهن من شدة الحزن.

عندما حل الظلام في تلك المنطقة البعيدة، كانت الصحراء تسمع ما تبقى من بكاء النساء ولوعتهن على مغادرة الأحباء، وسواليف الرجال الغامضة في تلك اللحظة، وأنين الأطفال وشكواهم وتعبهم ورغبتهم في النوم.

بدت عنيزة في يوم وداع «العقيلات» وكأنها تودع أغلى ما عندها من شباب ورجولة وكبرياء، فالعقيلات على خيرها الكثير في الرحيل والقدوم، فإن بها أيضاً الكثير من الحزن الذي لاينتهى،

والوداع الذي لايختفي.

في تلك الليلة بدت المدينة وكأنها مدينة أخرى، مدينة لاتعرف الضحك ولا المزاح، بل إن مجالسها العامرة كانت مغلقة. فكأنه بعد رحيل «العقيلات» لاتوجد هناك سواليف ولا قهوة ولا أخبار حرب ولا شيء.

كل المدينة حزينة وكأنها تودع القوافل لأول مرة أو لآخر مرة، أو كأن تلك القوافل لن تعود. كأن الناس لايعرفونها او تأتيهم لحظات مثل لحظات الوداع التي يرفضون فيها تصديق أنها عائدة بل ومحملة بالخير والعز والثروة بل والأحلام. لقد كان يوم الرحيل القاسي على عنيزة وأهلها، وكان يوم الفراق ويوم تقَطع القلوب.

رحلت قوافل «العقيلات»، غير أن الحزن الذي تخلف عن مغادرتها ووداعها، أو حتى تلويحات الوداع، بدت في المدينة وكأنها تحتاج إلى بعض الوقت كي تنسى.
أثناء عودة «يوسف» من عمله في الفِلاحة يقابله في الطريق صديقان قديمان، ويتطرقان في الحال إلى الكلام عن أخبار المدينة الطازجة: ما سمعت يايوسف؟ مدرسة «النويصر» الخاصة بالشمال فتحوا فصل يعلمون الكبار القراءة والكتابة.. واليوم بعد صار كذا وكذا.
الواقع أن «يوسف» لم تصل إلى سمعه بقية الأخبار ولا هو اهتم بها، وإنما انشغل بالخبر الأول عن فتح

المدرسة، واتجه في الحال إلى صديقه «مساعد» ليخبره وقال له: تراني نويت.. ثم ذهب الى بيته.
في المنزل استفسرت الأم عن سبب تأخره، فقال لها: فتحوا مدرسة يا يمه للكبار للقراءة والكتابة.. وأنا القِرشين اللي معي نويت أتعلم بها.
- هوّ.. يا وليدي.. ما تريد إن تتزوج بها.
- وش ها لزواج الحين.. أقول لِك أبغي أتعلم، تقولين زواج.
- وهذي فليساتك البسيطة ما كنت موفرها لمصيبة لا سمح الله ولا زواج؟
- هذي إنتى قلتيها مصيبة ولا زواج.. وأنا ما أبغي الاثنين.
- لكن يا وليدي الزواج يبي يونسك ويجعلك رجال ويكون عندك عيال.. أما التعليم فما درى وِشوّ يسو بيه.
- ما لي إلا أتعلم.. كل أولاد الحَمولة اتعلموا وعرفوا وسافروا وأنا هذاني ما تغيرت.. فلاح مسكين.
توقف الحوار لبعض الوقت عندما أحضرت أخته «جواهر» الغداء وراحوا يتناولونه بصمت.
في العصر حاولت «أم يوسف» ثني ابنها عن مشروعه المغامر، إلا أنه رفض الحوار معها وغادر البيت.

وصل «يوسف» إلى المنطقة الشمالية من عنيزة، حاملاً في جيبه ريالين كاملين. كانت المدرسة الخاصة مغلقة طبعا، لكن القسم الجديد الذي ضم صفين لمدرسة صغيرة سميت «فك الخط» كان مفتوحاً.

كما بدا لـ«يوسف» فالإقبال كان ضعيفاً على المدرسة. فلم يكن معه في ذلك الوقت إلا عدد قليل من أبناء عنيزة وأغلبهم كانوا في سنه.

وقف عدد من المدرسين الفلسطينيين والسوريين داخل المدرسة المتواضعة، التي يملكها أحد تجار المدينة، وجلسوا فوق طاولة وراحوا يسجلون الطلبة الذين يرغبون في الدراسة في مدرسة «فك الخط».

تقدم «يوسف» ودفع الريالين الغاليين على قلبه، واللذين استطاع توفيرهما بعناء من عمله المضني. وبعد الدفع أخبروهم بمواعيد الدراسة وهي بعد صلاة المغرب وحتى صلاة العشاء.

طار «يوسف» فرحا بخطوته الشجاعة، وتمنى لو كان «مساعد» معه في المدرسة، لكن تعذره الدائم بعدم حصوله على نقود هي التي تجعله لايقدم على خطوة مهمة من هذا النوع.

في الغد فوجىء «يوسف» أن الصف مملوء بأشخاص

كثيرين من المدينة والقرى المجاورة، بعضهم يعرفهم وآخرون لايعرفهم.

جلسوا جميعا على الارض بينما وقف المدرس يقرأ عليهم سورة «العلق» من القرآن الكريم التي تقول «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم» صدق الله العظيم.

ثم راح التلاميذ يرددون وراءه: اقرأ باسم ربك الذي خلق.. اقرأ باسم ربك الذي خلق.

بعدها راح المدرس الفلسطيني «صبحي» يشرح للتلاميذ أهمية القراءة والكتابة وقال لهم: «عندما تتعلمون سوف تتغير حياتكم، سوف تكونون أناساً أفضل وبشراً أرقي.. سوف تكون القراءة مفتاحاً لكم في العالم، فعندها ستقرأون الصحف والكتب وكل ما هو مفيد. وإن شاء الله فإنها سوف تحسن من ظروفكم وتستطيعون الحصول على فرص عمل أفضل.. والله يوفقكم».

وعندما انتهى المدرس من كلمتة القصيرة سأله أحدهم عن معنى كلمة «أرقي». ابتسم المدرس وقال: تعني أفضل أو أحسن.

وكلها ثوانٍ حتى ضج الفصل بصوت واحد يقول وراء

المدرس: ألفٌ.. باءٌ.. تاءٌ.. ألفٌ.. باءٌ.. تاءٌ.

كان «يوسف» وزملاؤه في الفصل يصرُخون بالألف والباء والتاء وغيرها وهم في غاية السرور، فلا أحد في تلك اللحظة يدرك مشاعرهم وقلوبهم التي تخفق بالسعادة ونشوة التعليم ودروسه الأولى في عقولهم ووجدانهم.

في طريق العودة إلى البيت لم يدار «يوسف» فرحته وغبطته، فقد كانت نشوة يوم التعليم الأول العظيمة لايمكن إخفاءها. لقد شعر في تلك اللحظة أنه ليس «يوسف» الفلاح، بل «يوسف» الجديد الذي يريد أن يكافح في الحياة، ولكن ليس على طريقة والده المرحوم مثلاً، الذي أفنى عمره وهو يعمل فلاحاً في حقول الآخرين.

لقد اعتبر «يوسف» هذه اللحظة الرائعة من حياته تحولاً لايُنسى، بل اعتبرها أهم لحظة وأكثرها أهمية.

كانت الخواطر تدور برأسه: آه مَن كان يتصور أنني سوف أقرأ الرسائل، بل وكلها شهور حتى تحضر نساء الحي ورجال المجالس يطلبون ودي كي أقرأ رسائل المهاجرين والمغتربين خارج عنيزة.. ياسلام.. وسوف أكتب رسائل أصدقائي إلى الخارج.. ومن يدرى ربما أكتب قصائد الحب التي يؤلفونها إلى حبيباتهم وأروى

لهن كيف يعشقهن هؤلاء الرجال.. وما أدري كيف ستكون نظرات «رويشد» و«جوهر» و«عبدالله» والفلاحين في المزرعة، بل حتى «مساعد»، حينما يروني كاتباً وقارئاً للجرائد.. الله يستر من الحسد بس.

كان «يوسف» وهو ماض مع هذه النشوة الجميلة يتصور نفسه قد ملَك الدنيا، وأحبها من جديد. فالتعليم إذا ثابر عليه يتركه إلا وهو إنسان آخر. إنسان يعرف أخبار الدنيا، ومطلع على أحوالها، يتابع الجرائد والمجلات ويقرأ الكتب. وباختصار يصبح مثقفاً كما يقولون.

وسأل «يوسف» نفسه وهو في تلك النشوة التي لاتوصف: هل سأترك الفِلاحة بعد التعليم وفك الخط؟ قال لنفسه: لا.. لا.. لاتبالغ يا يوسف، إنها رزقك ورزق أهلك ومهنة أبيك وأجدادك. وماذا سوف يعطيني التعليم إذاً؟ هل مجرد قراءة وكتابة؟ أم رقي كما قال الأستاذ اليوم. هل سأكون مثقفا فعلاً؟ أم أرجع إلى الفِلاحة وأخسر كل شيء؟

كل هذه الخواطر وعشرات الأسئلة كان «يوسف» وهو يغذ السير في الظلام عائداً إلى بيته، يحاول أن يطرقها بل ويحاول الإجابة عنها، لكن بعضها كان

صعباً جداً بحيث لايستطيع أن يقدم له إجابة واضحة أو صريحة في تلك اللحظات الجميلة.

في النهاية حاول أن يهدىء من تلك النشوة، ووقف سيل الخواطر الذي لم يتوقف في الطريق، ويدخل البيت وهو يقرأ السورة «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم».

وهنا قاطعته والدته قائلة: صدق الله العظيم.. بشر يا وليدي عسى أمورك كلها زينه.

قال ضاحكاً: زينة وبس.. قولي شيء ما هو بمعقول.. شيء عجيب. بديت الدراسة يا يمه باركي لي.. بديت.. بديت.. إنتي تو الحين تسمعين..

- إيه أنا اوحي.. أسمع.. وعطيتهم الريالين عجل؟
- عجل.. وشتبين يعلموني بلاش.
- والله خسارة الريالين اللي راحوا يا وليدي.
- بتشوفين الخسارة بعدين إن شاء الله بعدين ويش بتسوى.
- الله يوفقك.

راح يوسف إلى غرفته وهو في قمة السعادة. ثم نادى على والدته من بعيد قائلا: أبغي قهوة.. ترى عيوني ما فيها نوم ها الليله!

لم يمض الليل على «يوسف» بسلام، فلا النوم جاء ولا الأفكار توقفت، ولا الهواجس اختفت. حتى عند الفجر لم يستطع أن يغفو إلا لساعة ثم يقوم للصلاة وبعدها للعمل في «المهرانية».

كانت ليلة ليلاء. فدرس التعليم الأول يبدو أنه سيقلب الدنيا على رأسه، بل وعلى رأس كل قناعاته السابقة، وأفكاره التي لاتتغير إلا إذا تغيرت الأرض والفِلاحة.

ففي حقل «المهرانية» لاتنبت فيه أفكار، بل محراث وأدوات خاصة بالحفر والعزق والزرع، ونخيل ورطب وتمور وخضراوات، وأشجار وفِلاحة لاتنتهى. هناك

ماء عذب وحيوانات ترعى، لكن لا أفكار عذبة ولا قراءات ترعي، هناك فرق شاسع بين حقله وصفه، هنا هو يزرع ليأكل، وهناك يتعلم ليقرأ ويكتب ويرتقي.

حتى عندما ذهب «يوسف» إلى الحقل هذا الصباح وجد أن أفكار التعليم التي لازمته طوال الأمس في الطريق وعلى فراش النوم، هي نفسها أيضاً تطارده اليوم، ولايستطيع هو أن يطردها. صحيح أنه يمارس عمله بكل همة، لكن الأفكار تقفز إلى عقله وتتجول فيه، وأحيانا في روحه، وبكل همة ونشاط أيضاً. لقد حاول وهو يعمل أن يطردها أو حتى أن يؤجلها، غير أنها لم تستجب لمطالبه على الإطلاق، فظلت ملازمة له طوال الوقت.

كان يوما شاقاً جسدياً وذهنياً. كان «يوسف» يتساءل وهو في طريقه إلى البيت كيف يمكن للإنسان أن يعمل هكذا؟ فبالنسبة له هي تجربة جديدة لم يعهدها من قبل. فمنذ عمله كفلاح وهو صغير بعد وفاة والده المبكرة لم يكن ينشغل باله بأي شيء سوى أن يحصل على قوت يومه. بل لم يكن يفكر في شيء أو حتى يقلق من شيء. فيومه هو العمل في الحقل بالصباح والالتقاء بالأصدقاء بالنفود والجلوس

معهم عصراً، والمرور على المجالس في الليل، واليوم ينتهي على خير. لا أفكار ولا تحليقات في الذهن ولا مغامرات ولا حتى أحلام غير عادية.

هل من المعقول أن يُحدِث التعليم، وفي فترة قصيرة، كل هذا القلق ويفجر كل تلك الهواجس؟

مع فترة العصر كان «يوسف» قد ولج في نفق التفكير وقلق الأفكار فعلاً، حتى جلس مع صديقه «مساعد» في جلسة النفود المعتادة. كان «مساعد» ضاحكاً كعادته ينتظر «يوسف» على أحر من الجمر، لكي يروي له ما جد من السواليف.

قال «يوسف»: يا الله قل ما عندك اليوم.

رد «مساعد» مسروراً: اليوم.. اليوم يوم سعدي وهناي ياصديقي.

- تبي تسافر..
- والله ودي.. لكن عندي شيء أهم.
- وشو..
- شفت «سارة» اليوم وتكحلت هيّ بشوفتي.
- انت ما عندك غير تمدح بنفسك.
- لا.. وأبشرك بعد.. عرفت وقت طلعتها ورجعتها.
- تبي تشتغل ناطور عندهم وإلا كيف؟
- ناطور.. جاسوس.. كله هذا ما يهمني.. المهم

أشوف الحلوة وتشوفني.

– اتركنا عاد شويه من كلامك واسمعني، اليوم تراني قلق بالحيل.

– عسى ما شر.

– بديت أتعلم من أمس وكنت مسرور جدا.. لكني قلقت من البارحة وحتى الحين.

– وليش ياخوي؟

– ما دري ويش أقول.. بس حسيت إني تغيرت وصارت عندي هواجيس كثيرة.

– اصبر يا يوسف تو الناس.. ما بعدك تعلمت شي علشان تقول هذا الكلام.

– هذا اللي خايف منه.. توني متعلم وها القلق.. شلون بعدين.

– يا ولد الحلال.. إن شاء الله ما يصير إلا الخير.

ثم راح «مساعد» يروي له سواليفه عن «سارة» والأحلام التي صارت لاتفارقه عنها.. عن حلم الزواج، وحلم القبلة ولذتها من فم سارة وغيرها.

كان «يوسف» مستمتعاً طوال الوقت بتلك السواليف التي نحت قلقه وأفكاره وإنْ لم تستطع إنهاءها كلياً.

شعر الاثنان أنهما صارا مفترقين، على الأقل في هذا اليوم. فـ«يوسف» مهموم ومشغول بالتعليم بينما

«مساعد» كل همه وروحه وطبعا قلبه «سارة». لكن كل هذا لن يغير شيئاً في الوقت القريب على الاقل.

عندما غابت الشمس قصد «يوسف» و«مساعد» المسجد للصلاة، وعندما خرجا كان على «يوسف» أن يهُمّ بالذهاب مسرعاً إلى مدرسته لحضور الدرس الثاني.

«سارة بنت الماضي ستتزوج الليلة».. كان هذا هو الخبر المثير في عنيزة كلها، إنه الخبر الذي لم يستطع أحد أن يمنع لسانه عن الحديث فيه من نساء ورجال.

أخيرا «سارة» ستتزوج! هذه الفتاة الجميلة التي كانت الشغل الشاغل لعنيزة سوف تنتهى حكايتها المثيرة الليلة.

فلم تشتهر فتاة في المدينة مثل «سارة». فضلاً عن جمالها الآخاذ كانت ذات شخصية قوية، تعرف ما تريد، خاصة وأنها تربت في بيت أحد الأثرياء وهو بيت «الماضي».

وبين فتيات الأثرياء الأخريات تميزت هي بجاذبية ودلال وعذوبة في الكلام وثقة بالنفس، علاوة على كسبها ثقة ومحبة والديها اللذين أحسا باختلافها، وربما يكون هذا هو السبب الوحيد الذي جعلها تستطيع أن ترفض كل الذين تقدموا للزواج منها.

وكانت غيرة بنات عنيزة منها ليس بسبب جمالها، فبعضهن جميلات، وليس بسبب ثراء والدها، فهناك بيوت ثرية تدلل بناتهن وأكثر، لكن الغيرة من «سارة الماضي» وربما الحسد منها يتركز على كونها الفتاة الوحيدة في المدينة التي استطاعت دائماً إقناع والديها بأن وقت زواجها لم يحُن بعد، وأنها سوف تتزوج عندما ترغب هي في الزواج، واستطاعتها جعْل الأب بالذات يتقبل رفضها المتكرر لبعض الرجال الذين تقدموا لها.

كانت «سارة» بسحرها على والدها تحديدا تقول له ما لاتستطيع بنت في عنيزة أن تقول عن الرجل المتقدم لها. فهذا الرجل «غير مملوح» وذلك الرجل «شين» وهذا الرجل سمعت عنه كذا وكذا. فهذه جرأة او حتى «وقاحة» ما بعدها وقاحة من فتاة او امرأة.

عندما جاءت نساء بيت «الشبلاوي» التاجر المعروف بالمدينة وطلبن يد «سارة» قبل أسبوعين وافقت

عائلتها مبدئياً، لكن أهلها طلبوا إمهالهم بعض الوقت للرد وليأخذوا - طبعا - رأي البنت.
وتوقعت «أم سارة» وأبوها بالطبع الكثير من المشاكل والعقبات، كما كان يحدث في كل مرة، وتضخيم عيوب الرجل وعائلته، كما كانت البنت تفعل كل مرة.
وتوقع الوالدان أن ترفض «سارة» هذا العريس أيضاً حتى ولو كان «كامل الأوصاف»، فهذه عادتها وطريقتها. لكنهم كانوا مغلوبين على أمرهم ولابد أن يفاتحوها بالموضوع، فالناس الطالبون ينتظرون الرد، والرد عندها وليس عند العائلة.
في العصر دخلت الأم على ابنتها التي كانت مستمتعة برؤية نفسها في المرآة كالعادة، وتسرح ذلك الشعر الأسود الفاحم الجميل.
قالت لها الأم: عندنا يا بنيتى متقدم لك رجال جديد.
ضحكت سارة وقالت: وها الرجاجيل ما يخلصون.
- لا عاد ها المرة واحد زين وولد ناس.. وإن شاء الله ما تِردينه..
- ومن هذا؟
- ولد الشبلاوي الصغير «أحمد».
ولأول مرة تلتفت سارة إلى أمها وهي تبتسم ابتسامة

رضا. وشعرت الأم في الحال أن ابنتها راضية، فهذه المرة لا عيوب ولا تفكير ولا تعنيف ولا شيء آخر.
ركضت الام فوراً لزوجها لتبشره بالخبر وهى في غاية السعادة. وقالت له: أخيراً بنتك وافقت.
وأضافت: سوف نرد عليهم في الغد.
وأكملت: لكن سوف أخبرهم أن يُبقُوا الخبر سراً حتى لايؤذونا الناس.
وأومأ «الماضي» بالموافقة، وبدا على وجهه السرور واضحاً. ومع ذلك قرر الذهاب بنفسه إلى سارة والحديث معها في الموضوع.
لكن كيف قبلت «سارة» هذه المرة الزواج؟
استمتعت نساء بل وحتى رجال المدينة طيلة اليوم بالبحث عن السؤال المثير والعجيب.
كانت أكثر الإجابات منطقية ومعقولة تؤكد أنها وجدت في ابن «الشبلاوي» الصغير «أحمد» الكثير من المواصفات التي كانت تتمناها. فهو يقرأ ويكتب، كما أنه شاب «مملوح» وبه الكثير الوسامة، والأهم أنه ابن «الشبلاوي» التاجر الثري والمشهور في عنيزة. وهناك بعض المعلومات الخاصة عرفتها منذ فترة من «مخابرات الحريم» اللواتي لايخفى عليهن شيء.

وبعض الإجابات وجدت أنها وافقت على هذا الشاب لأنه يسافر بين فترة وأخرى إلى أعمامه في العراق، وأنه أذكي كثيراً من إخوانه الكبار.

بعض النساء فسرن قبولها بالزواج لأنها رفضت الكثير من الرجال، وأن الوقت قد حان لقبول أحدهم، وهذه المرة «أحدهم» ليس شخصاً عادياً، بل هو ابن «الشبلاوي». وفي رأى النساء فإن الفتاة الشاطرة هي التي تختار بشروطها في البداية، ولكن لاتستمر في هذه اللعبة الخطرة كثيراً، فهناك فتيات جميلات رفضن لبعض الوقت، ثم رفضهن الرجال أنفسهم. والرجال لايصبرون كثيراً، فإذا ما رفضتهم فتاة وتقدم لها بعضهم ورفضته، فإنهم أحياناً ينتقمون منها بعدم زواج أحد منها.

كان الجميع يقول إن «بنت الماضي» لعبت اللعبة بمهارة وشطارة وكسبت في النهاية، فهي قد حصلت على الرجل الذي تريده وبأدنى الخسائر.

لكن بعض التخمينات قالت إن هناك صفقة ما تمت بين «آل الماضي» و«آل الشبلاوي»، بل إنها أشبه ما تكون بالصفقة التجارية التي عادة ما تشتغل فيها العائلتان الثريتان. أما كيف تمت الصفقة وأسرارها وحجمها، فهذا ما لايعرفه أحد.

وهناك تفسيرات أخرى قالت إن البنت أحست بكبَرها، وهذا ليس في صالحها، فلا سن يدوم، والأهم أنه لا جمال دائم، بل إنه يذوب مع الزمن.

أياً كانت الأسباب والتحليلات والتخمينات، إلا أن «سارة الماضي» بقبولها الزواج استطاعت أن تكون نجمة عنيزة ذلك اليوم وربما لأيام طويلة. ففي العادة تكون أعراس الأثرياء محور أحاديث الناس والنساء على الأخص، لكن الجميع لم يهتم بذلك كثيرا، فقط اهتموا بسارة الجميلة وقبولها الزواج بعد رفض متكرر.

حتى في سوق عنيزة كان زواج «سارة» مدار أحاديث أصحاب الدكاكين والتجار الصغار والكبار. فتجهيزات الزواج وحجمها والمشتريات والنقود التي صُرِفت لتجهيز العروس والحفل كانت تفوق التوقعات بكثير.

لم يبق أحد في المدينة لم يعرف أن «سارة الماضي» سوف تتزوج الليلة من ابن «الشبلاوي». لم يكن الزواج هو الأسطورة، بل كانت «سارة» هي الأسطورة.

في ليلة الزواج الذي أقيم في بيت «الشبلاوي» الكبير، كانت عنيزة كلها معزومة على العشاء، رجالاً ونساء

وشيوخاً وحتى أطفالاً، وكان العشاء كبيراً بحيث إن المدينة كلها شبعت من أجود وألذ الطعام.

في الساحة القريبة من البيت وبعد العشاء الفخم الذي يليق بالعائلتين كانت الطبول المزخرفة تصدح بالاغاني والاهازيج. كانت فرقة العرضة تحتشد وتغني ويشاركها بعض الأهالي السعداء.

وفي ساحة أخرى كانت بعض الأهالي يشاركون في غناء «السامري» الجميل بالغناء والرقص.

انقضت عدة أيام على حفل زواج «سارة الماضي» ولم يزل «مساعد» طريح الفراش. كانت الحمي قد أصابت كل جسده، وكان يهذي بالليل بكلام غير مفهوم كما قالت والدته لصديقه «يوسف»، وصار لايأكل شيئاً ولايعرف شيئاً. والكلمة الوحيدة المفهومة التي يقولها في كل وقت هى «سارة». كان يقولها أحياناً ثم يغيب، وأحياناً يقولها ويتمتم وراءها ببعض كلمات غير مفهومة.

في الفراش بدا «مساعد» وكأنه رجل يحتضر وهو يتلو وصيته لأولاده، أو مثل شخص لا علاج له سوى انتظار وترقب الموت.

في البداية أحضرت له والدته حكيماً متنقلاً ففحصه وأعطاه بعض الأدوية، لكنها لم تنفعه بشيء، وأحضرت له أيضاً بعض شيوخ دين وقرأوا عليه بعض الآيات وأعطوها ماءً قالوا لها إنه سوف يجعله يتشافى قريباً.

لكن لم ينفع مع «مساعد» شيء. حتى أصدقاؤه الذين كانوا يتوافدون عليه في الصباح والمساء لم يقدروا على فعل شيء، كما أنه لم يكن يشعر بهم أصلاً. بل حتى صديقه العزيز «يوسف» لم يكن يدري به رغم كل محاولاته في أن يخفف عنه.

«حالته تصعب على الكافر» هكذا كان «يوسف» يردد على الناس كل يوم وهو ذاهب إلى الحقل في الصباح أو إلى المدرسة في الليل.

ومضى أكثر من أسبوع و«مساعد» بدون تحسن على الإطلاق. لقد فقد أكثر من خمسة كيلوجرامات من جسمه، وصار نحيلاً وشاحباً إلى درجة أن زواره الجدد لم يعودوا يعرفونه.

حتى «سارة الماضي» السعيدة في زواجها من «أحمد الشبلاوي» راحت تبكي بخفاء كلما سمعت أخباراً عن محبها السابق «مساعد». كان البكاء والدعاء له بالشفاء هما الشيئان الوحيدان اللذين تستطيع

القيام بهما في مثل هذه الظروف. في ساعات الضحى كانت تقول لأمها والدموع في عينيها إنها لم تكن تتصور أن هناك رجلاً يحبها إلى هذه الدرجة!

انتشرت بعض الشائعات في «عنيزة» تقول بأنه تُوفي أو أنه يحتضر في ساعاته الأخيرة. وكانت هذه الشائعات قد انتشرت بسبب الأخبار التي ينقلها الزوار عن «مساعد» المريض جداً.

بعد أسبوعين نهضت والدة «مساعد» كعادتها في الصباح مبكرة لتتفقد ابنها المريض، وكانت المفاجأة كالصاعقة. فقد كان «مساعد» يلبس ثيابه ويستعد للخروج من البيت. ولم تستطع والدته – بالطبع – إخفاء فرحتها، فراحت تعانقه وتقبله وهي تبكي فرحاً. وتصرخ وهي تمسك رقبته: هل أنت طيب.. هل أنت طيب يا وليدي.

وتواصل: ألف حمد لله على السلامة.. متأكد إنك بخير.

وجاء إخوانه الصغار وقبلوه وهم في قمة الفرح.

لكن على عكسهم كان «مساعد» الواقف بصلابة وكأن مرضاً لم يَلُم به، وليس كأنه الرجل الذي استلقى على فراشه أسابيع غائباً عن الوعي.

وعندما هم بالخروج قالت له أمه: وين رايح يا

وليدي.. ترى الصباح توه.
قال لها بثقة: بروح إلى سارة!
هنا شعرت والدته بأن ابنها لم يتشافَ بعدُ، بل ربما أن المرض أثر فيه كثيراً، وعاودها قلقها وحزنها عليه، وغادرها الفرح القصير بسرعة لم تكن تتوقعها.
عند الباب قالت له وكأنها تحاول أن تصدمه: سارة يا وليدي ترى اتزوجت.
فرد عليها وهو يغادر البيت: أدري.. أدري.
منذ أن غادر بيته في ذلك الصباح، كان «مساعد» يهيم في طرقات المدينة ويهذي مع نفسه. صار لايعرف ماذا يقول؟ ولايعرف حتى من هو! عاف الأكل وترك الصلاة وكل ما يفهمه الناس منه هو: سارة.. سارة.. والناس يسمعونه ولايقولون سوى: لا حول ولا قوة إلا بالله.. ها المسكين.. ترى جَن.
فعلا كان «مساعد» قد قارب على الجنون، فهو يخرج من بيته في الصباح الباكر ولايعود إلا منتصف الليل. وكل ما يفعله سوى المشي في طرقات المدينة والتسكع في السوق، ثم المرور على مزارع النخيل والخروج أحياناً إلى الصحراء خارج المدينة.

كان «يوسف» يحاول ما يستطيع عمله. كان يوقفه كثيراً ويتحدث معه ويهدىء من روعه، وأحيانا يحاول أن يشتمه كي يثير غضبه! وكثيراً ما كان يقول له: سارة تزوجت.. وهناك مئات مثل سارة وأزين بعد.
غير أن كل محاولات «يوسف» لم تأت بأية نتيجة أو فائدة، فهذا العاشق لم ييأس بعد.
عادت الأم المسكينة من جديد إلى المشايخ الذي قرأوا الآيات وعملوا ما يستطيعون، لكنها لم تيأس، وسألت «أم سلطان» صاحبة المجلس النسائي الشهير في المدينة إنْ كان عندها حل، فردت عليها على الفور: اكتبوا رسالة إلى أبوه في الزبير ، وهو يتصرف.
وأخذت «أم مساعد» بالمشورة وقصدت مدرسة «النويصر» وطلبت من الحارس استدعاء التلميذ «عدنان»، فجاءها مسرعاً.
كان «عدنان» مستعداً بالورقة والقلم. وقالت له اكتب يا وليدي:
«عنيزة في ٤ مارس ١٩٤٠ م
حضرة الزوج العزيز أبو مساعد حفظه الله من كل مكروه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد يا أبوالعيال ما كان ترى ودي أكدر خاطرك.. لكن ترى «مساعد» تعبان وودنا بدكتور له وعجزنا معه والمشايخ كذلك.

بعض الناس يقولون إنه محتاج يشم هواء بالخارج، وبعضهم يقولون إنه لازم يتزوج.. والأمر لك.. وأرجو الرد علينا بأسرع وقت.

وأهديك خالص السلام وكذلك الأولاد والوالد، وسلم لنا على جميع الأهل والحمولة بالزبير، والله يحفظك ويرعاك.

أم مساعد»

وأعطت «عدنان» بعد أن أنهى كتابة الرسالة قروشاً قليلة طار بها فرحاً، فيما راحت هي مسرعة لأجل إرسالها.

في ٢٨ أبريل وصلت رسالة مستعجلة إلى «أم مساعد» من زوجها تقول:

«حضرة الزوجة العزيزة أم مساعد حفظها الله من كل مكروه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، أرجو إرسال الولد مساعد حالاً إلى العراق، لأنني وجدت

أن الأنسب له أن يكون هنا في الزبير حيث أقيم واعمل وإن شاء الله أحصل له على عمل، وأخليه يتعلم بعد.

ربنا يحفظكم ومنا الجميع يهدونكم السلام.

أبو مساعد»

روت «أم مساعد» تفاصيل الرسالة على ابنها الهائم حتى الآن. وشعرت أن الرسالة نفسها أحدثت تحسنا ما لم يستطع أحد فعله من مشايخ دين ولا أطباء ولا أصدقاء ولا غيرهم. ومع إحساسها بذلك كانت والدته تروي عليه الرسالة وهو يسمع في كل مرة ويظهر الانبساط على وجهه، بل إنها لاحظت خلال أيام قليلة تغيرات كثيرة عليه. فلم يعد يخرج كثيراً مثل ما كان يفعل في السابق، وخفت التمتمة مع نفسه والهذيان كثيراً، ولم يعد يتلفظ باسم حبيبته «سارة» إلا قليلا.

هذا التغير المفرح في حال «مساعد» أسعد صديقه «يوسف»، بل وأسعد كل أهل عنيزة الذين كانوا في قلق كثير على الشاب.

وفي ناحية «النفود» تواصلت اللقاءات القديمة والحميمة بين الصديقين، وعلى رملها الجميل

استمرت الأحاديث. وانتبه «يوسف» إلى أن صديقه قد تغير جذرياً منذ أن علِم برغبة والده أن يسافر إليه في الزبير.

قال «مساعد»: جنيت مرة بسارة.. وأخاف أجن مرة ثانية إني باروح الزبير.

رد «يوسف»: وانت لازم تّجِن؟

- اللي صابني ما كان قليل وأنت عارف.. لكن أشوف إن روحَة الزبير ريحتني كثير.

- الحمد لله يا خوي.

- وإنْ جيت للحق تراني كرهت عنيزة وغرابيلها.

- لا.. عاد ما لك حق.. كل واحد يحب بنت وما تحبه يكره ديرته؟

- ما عرفت الحب وبلواه يا يوسف.. لو عرفته كان كرهت حتى بيتك وأهلك.

- الحين إن شاء الله تبي تروح الزبير قريب. لكن ما قلت لي كام ناوي تجلس هناك.. وش ناوي تشتغل؟

- والله ما عرف شي يا حبيبي.

- ما قال أبوك شي؟

- قال بس تعال وبا دور لك على عمل وبس.

- سمعت عن الزبير كثير ترى.. يقولون إنها بلد حلوة وناسها طيبين بعد. ولو ما هي كذا ترى النجادة ما

راحوا فيها.. ترى بها من أهل عنيزة رجال وعوايل كثيرة، بعضهم تجار وبعضهم فقراء مساكين.

- سمعت إنْ التعليم عندهم زين وعندهم مدارس كثيرة وتقدر تتعلم إنجليزي وحساب بعد.. لكن ما قلت لي ويش اخبار دراستك بمدرسة فك الخط .

- الحمد لله كويسه.. تعلمنا الحروف كلها والله يعين.

- تراني فرحان لك كثير والله يوفقك.

عندما راحت الشمس تغيب عن النفود بدأت الناس ترحل، فهَم «يوسف» و«مساعد» بمغادرة المكان والذهاب إلى المسجد القريب.

غير أن الأهم من مغادرة «النفود» هو ذلك التفكير الذي لم يتوقف عند «مساعد» حول مغادرته لعنيزة إلى الزبير.

كان مساعد «الجديد» قد بدأ جنونه بالسفر.

سارعت «أم مساعد» لبيع بعض ذهبها ومصوغاتها الثمينة على قلبها في السوق، ودون أن تمنعها نوبة حسرة أو أسي. فلم تصدق المسكينة أن ابنها يتعافى بعد الوعكة المرضية الخطيرة التي أصابته وجعلته طريح الفراش لأسابيع.
كانت المسكينة مستعدة لتبيع كل ذهبها بل وأغراض بيتها ليسافر «مساعد» إلى والده في الزبير ويشعر بالسعادة هناك. لم تكن تدرك أن دواءه هو السفر والابتعاد عن عنيزة بعد المحنة التي أصابته.
وبعد مساومات كثيرة مع تجار السوق حصلت على بعض ريالات كانت كافية وربما تزيد قليلاً لتأمين

رحلة «مساعد» إلى العراق. ورغم فرحه الشديد بالسفر إلا أن «مساعد» لم يكن فرحاً ببيع والدته لبعض ذهبها، لكن ما باليد حيلة ولم يكن بالمقدور فعل شيء، فالقروش القليلة التي كانت بحوزته قبل مرضه صرفت إلى المشايخ وبعض الأطباء وللأدوية.
بعدما توافرت النقود راح مع صديقه «يوسف» يبحثان عن شاحنة تقصد البصرة، وكانت الإجابات التي تلقياها تشير إلى ان كل الشاحنات الذاهبة إلى العراق لاتوجد إلا في الرياض. وهكذا لم يجدا بدأ من التسليم بذلك والاستعداد والتهيؤ لسفر «مساعد» إلى العاصمة الرياض. وفي غمرة تلك الاستعدادات، كان سفر «مساعد» هو حديث المدينة.
في مجالس الرجال كان هناك ارتياح واضح لسفره، وكان الرجال يقولون: هذا أصلح له، هناك يجلس مع أبوه ويشتغل ويتعلم ويتزوج وحده من بنات الحمولة.
أما بعض المتشائمين من سفره فكانوا يقولون: عساه بس يفلح هالولد، وما ينسى فضل أمه وتعبها وسهرها عليه.
لكن عند النساء كان التشاؤم هو الغالب، ففي مجلس «أم سلطان» اليومي وجدت الكثير من النسوة أن «مساعد» ولد متعب، أتعب أمه وإخوانه وأباه أيضاً،

والذي يتعب أهله لا فائدة منه لأحد!
وقالت امرأة شابة: والله الخوف بعد أن يروح للعراق ويجلس يحب في هالبنات الحلوات وينسى أهله وأمه المسكينة ولايرجع لعنيزة أبداً.
ردت أخرى: والله ما أظنه بيقوم بكذا بعد اللي صابه من «سارة الماضي»، كان قريب ويموت والله نجاه.
خارج تعليقات المجالس كان «يوسف» يوصى «مساعد» دائماً بأن يتعلم لأنها فرصة ثمينة، ويكرر له باستمرار: ترى إذا ما تعلمت بالعراق ما بتتعلم أبدا.
قبل أيام من سفره كان بيت «مساعد» دائم الطرق في الصباح والمساء، فالكل يحمل مكتوباً أو وصية إلى عزيز هناك.
حتى «سارة» التي أحبها بجنون سمعت عن سفره، ففرحت له وتمنت في داخل قلبها أن يَسعَد في الغربة.
أما «أم مساعد» فكانت تستعد بارسال بعض التمور وحلوى «الكليجا» إلى أبي مساعد .
أغراض مساعد الشخصية القليلة لم تكن تحتاج إلى وقت لترتيبها، لذلك ترك تلك المهمة السهلة إلى إمه. لكنه وجد في الليلة الأخيرة له في عنيزة أن اغراض الناس التي أرسلت إليه من مكاتيب وتمور وصناديق حلوى كثيرة جداً.

وفي تلك الليلة نفسها قصد بعض المجالس لتوديع روادها وأصحابها، وكذلك فعل مع أصدقائه ومعارفه، أما «يوسف» فقد اتفق معه على أن يكون الوداع الأخير معه قرب الشاحنة التي سوف تقله إلى الرياض.
في الصباح الباكر نهض «يوسف» وذهب الى بيت صديقه، هناك شاهد الأغراض الكثيرة تُحَمل في شاحنة صغيرة «وانيت» من قبل «مساعد» وسائقها وبهمة عالية، بينما وقفت «أم مساعد» أمام باب البيت تراقب وهي تبكي بحرقة.
ككل رحيل وفراق في الدنيا كان المشهد مؤثراً جداً، حزيناً اغرورقت فيه العيون بالدموع وبحرقة العيون.
نساء يبكين ورجال يحبسون دموعهم.
كاد «يوسف» أن يبكي لولا أنه سمع مساعد يردد في ما يشبه الغناء:
«ودينا على الزبير
ودينا..
خذنا لهم وخلنا معاهم
ودينا على الزبير..
ودينا على الطير
ودينا».

فرح «يوسف» لسعادة صديقه «مساعد»، وراح فور وصوله يساعد في تحميل ما تبقى من أغراض.

عندما امتلأت الشاحنة بالأغراض، أيقن الصديقان بأن لحظة الوداع قد حانت، فذهب «مساعد» في الحال إلى والدته الغارقة بدموعها وقبلها على رأسها ويدها، ثم قبل أخاه وأخته الصغيرين، واتجه إلى «يوسف» وقال له: والله ياصديقي.. ما شعرت إني أموت في هوى عنيزة إلا يوم فراقي عنها. البارحة ما ذقت النوم وأنا ألوم نفسي على ما قلته في حق عنيزة. لكن أرجوك قل للكل إني آحب عنيزة وما با موت إلا فيها.

تعانق الصديقان بحرارة لمدة طويلة، ولم يتوقف هذا العناق الجميل إلا عندما دق السائق بوق الشاحنة معلناً الرحيل.

لم يبق على تخرج «يوسف» من مدرسة الخط إلا أسابيع قليلة. وعندما أخبره المدرس الفلسطيني «صبحي» بأن تخرجهم قد قرُب فرح كثيراً، وسأل المدرس: وماذا بعدُ يا أستاذ؟!

قال المدرس: خلاص.. اذهب من الآن وابدأ قراءة الجرائد كما كنت تتمنى دائماً.

توجه إلى أمه في تلك الليلة وأخبرها هى وأخته «جواهر» بقرب التخرج من المدرسة. راحت الأم تقترح على ابنها ماذا يريد أن تقوم به. هل سنعشي الحي؟ أم يقترح أن يكون غداء؟ والا نجيب أحد يغني لنا «السامري» لتطرب الناس؟

رفض «يوسف» كل تلك الاقتراحات لأنه يعرف إمكانيات والدته المادية. فمن أين ستأتي بمصروفات غداء أو عشاء أو مغنين أو غيرها! حتى ذهبها البسيط الذي كانت تعتمد عليه لوقت الحاجة لتبيع منه بِيعَ ولم يبق منه شيء ولو بسيط .

قال يوسف ليطمئن والدته: ما دامت أنتِ و«جواهر» مبسوطتين وفرحتين.. خلاص أنا ما أريد شي.

في مجالس «بيت الشبلاوي» و«بيت العنيزاوي» وغيرها راح «يوسف» يقرأ الصحف والمجلات المتوفرة هناك، من «المصور» و«الهلال» و«الأهرام» و«العراق» وغيرها.

بدأ محاولات القراءة بصعوبة، لكن عزيمته وتكثيفه للقراءة جعلت منها أكثر من ممكنة. كما أن الصور وخاصة في المجلات المصرية ساعدته كثيراً في إغرائها سواء كانت عن الأحداث أو لنساء جميلات وشبه عاريات.

لم يتحصل «يوسف» في البداية على تلك المجلات بسهولة، بل إنه لم يكن يدري عنها أصلاً. وعند بداية معرفته بوصول الجرائد والمجلات راح يسأل ابن «الشبلاوي» عن مصدرها وكيفية وصولها إلى عنيزة.

وفي إحدى الليالي قال له: إنها تصلنا عن طريق البحرين أحياناً، وعن طريق الشام أحياناً أخرى، وفي أوقات قليلة تصلنا مباشرة من القاهرة نفسها!

وعندما وجد «ابن الشبلاوي» صريحاً معه قال له: ولكني لاحظت أنه ليس كل المجلات والجرائد توضع جميعا في المجلس.. فما هو السبب؟

رد «ابن الشبلاوي» بثقة: انت تعرف يا يوسف أن بعض المجلات والجرائد تصلح لعرضها في المجلس وبعضها لا، وأكثرها لايصلح على الإطلاق، رغم أننا نعرف أن غالبية بل الأغلبية الساحقة لرواد المجلس لايعرفون القراءة ولا الكتابة أصلاً!

لم يستغرب «يوسف» كثيراً من الإجابة الدبلوماسية، لكنه قال لـ«ابن الشبلاوي»:

- وماذا عنى أنا؟

- انت بالذات على العين والراس.. واللي تبيه من مجلات خاصة أو جرائد حِنا حاضرين.. وكل يوم تعال وباعطيك إياها.

حاول «يوسف» في بداية قراءته للمجلات أن لايطالع صور النساء، واعتبر أن ذلك أمر معيب، وأن هؤلاء مستحيل أن يكن نساءً مسلمات أو حتى عاقلات، بل وجد أنهن عاهرات على أقل تقدير. وأرَاحَه هذه

التقييم كثيراً، فبدلاً من عدم رؤية تلك الصور كان يطالعهن ويتمتم مع نفسه: إخس عليكن ياحريم.. قحاب ما تستحون.

ومع تقدمه في القراءة وجد أن تلك الصور «صور القحاب» كما يقول عنهن دائماً، صارت تغريه، بل وتطور الأمر معه إلى درجة أنها تغريه جنسياً، بل وحلم يوما أنه ينام مع واحدة منهن.

كانت المجلات تنشر صور ممثلات هوليوود وممثلات مصر ولبنان، إلا أن «يوسف» كان يطالع ممثلات هوليوود بتفَحص اكثر. فأكثرهن كانت صورهن تظهرهن وهن بالمايوه الذي يُبدي الكثير من المفاتن من سيقان جميلة وأفخاذ رشيقة، ونهود مكتنزة كأنها رمان قُطِف من الشجرة للتو. في حين وجد في النساء العربيات أو الممثلات منهن يبدين في صورهن أقل عُرياً وكشفاً لمفاتنهن.

في إحدى الأمسيات شاهد في مجلس «الشبلاوي» بأحد المجلات صورة ممثلة أمريكية فائقة الجمال متمددة بلباس المايوة القصير جداً على البحر وشبه نائمة، وكانت قد نزعت ستيانها ووضعته بقربها على الشاطئ ، بينما بدت الأطراف السفلية من أردافها واضحة في الصورة، كانت الصورة بها من الإغراء

الكثير الأمر الذي جعله لايقوى على مقاومة اختلاس المجلة من المجلس. وبالفعل غافل الحاضرين وطواها وضعها في جيب ثوبه الأيسر.

في تلك الليلة غادر «يوسف» إلى بيته وهو متوجس من أن يراه أحد والمجلة بحوزته، ولما وصل البيت دخل غرفته وخبأ المجلة في مكان سري لايعرفه إلا هو. غير أنه قبل أن ينام تناول المجلة وراح يقلب صفحاتها إلى صورة تلك الممثلة الجميلة شبه العارية. وأخذ يركز في الصورة وهو ممسك مصباح الكيروسين بقربه ويقبل فخذيها بشهوة قوية. واكمل بقبلة قوية اخرى على ظهرها، ولم يجد شيئا يصنعه امام شعرها الطويل سوى محاولات عبثية منه أن يداعب صورة خصلاته السوداء الجميلة. ثم راح يقبل كل جزء فيها من الرأس حتى قدميها وهو في حالة من النشوة الجنسية العارمة! وفجأة احتوته سَورة من الخوف على نفسه، وأخذ «يلعن» القراءة التي جعلته يطالع صور القحاب ويستمنى عليهن.

مع اقتراب يوم التخرج من مدرسة الخط، وجد «يوسف» أن أفضل طريقة للهروب من تلك الفتيات الفاتنات والحلوات و القحاب هو عدم مطالعة المجلات نفسها، والاكتفاء بالجرائد فقط. ومع ذلك

كانت نشوات الجنس مع صور المجلات كانت تخايله في بعض الليالي.

في العشرين من مايو عام ١٩٤٠ كانت ليلة تخرجه .

قبل المغرب ألحت والدته عليه إلا أن تحضر مناسبة التخرج هي وأخته، فحاول إقناعها أن هذا الحفل هو للرجال فقط، أي لآباء التلاميذ لكنه لم يفلح. وفي النهاية نهرته بشدة وقالت بتحد واضح:

- أبوك مات.. وأنا الحين أمك وأبوك.. بس ما أريد كلام ثاني.

وبالفعل خرجت العائلة كلها إلى موقع الاحتفال بمدرسة النويصرية التي سيجرى بها احتفال مدرسة «فك الخط» الصغيرة.

كانت جموع الآباء غفيرة، فجميع آباء المتخرجين حضروا. وجلس «يوسف» مع زملائه في مقاعد مختلفة والأهالي في مقاعد مختلفة، أما المدرسون فانهكموا في تحضير الشهادات.

بدأ الحفل بتلاوة أحد التلاميذ آيٍ من القرآن الكريم، بعدها ألقي مدير المدرسة كلمة قصيرة أشاد فيها بالتلاميذ وأهاليهم. ثم ألقي المدرس الفلسطيني «صبحي ياسين» المسئول عن مدرسة «فك الخط» كلمة صفق لها الجميع طويلاً، ولاسيما

عندما اختتم حديثه بقوله «يا تلامذتي.. لقد فككتم الخط.. هنيئا لكم».

بعد تلك الخطبة العصماء قام الطلبة وأنشدوا نشيداً مؤثراً يقول:

«ياشباب العُرْبِ مهلاً
زمن القول تولي
وهلال المجد هلا
وأتي دور العمل
نحن في عصر جديد
نحن في عصر الحديد
فلنُعِد ماضي الجُدود
بجهاد وأمل
نهض الغرب ونمنا
ومضوا هم وقعدنا
فلهذا قد خسرنا
حقنا بين الدول».

وصفق الحضور طويلاً لهذا النشيد الذي أداه التلاميذ بشكل ممتاز .

وعندما بدأ توزيع الشهادات على التلاميذ صفق كل أب لابنه وأحياناً لابن جاره أو صديقه. ولكن عندما جاء اسم «يوسف» ونهض لتسلم شهادته فوجىء

الحضور بوالدته وهي تطلق الزغاريد بصوت عال.

ولم يكن أمام المدرسين إلا التصفيق لتلك الحركة العفوية، أما باقي الرجال فقد أبدَوا امتعاضهم من زغاريد «أم يوسف» التي واصلت إطلاقها حتى نهاية الحفل.

مضى على سفر «مساعد» قرابة الشهرين ولم يرد عنه خبر، فلا رسالة وصلت إلى أهله ولا حتى أخبار جاءت إلى «يوسف» القلِق بشأنه.

كانت «أم مساعد» تتردد كل يوم تقريباً على بيت «يوسف» للسؤال والاطمئنان بشأن ابنها ولكن لم يقل لها أحد شيئاً. كان «يوسف» يطمئنها كل يوم بكلام راح يكرره مراراً: يا أم مساعد.. الرسائل تاخذ وقت طويل، وترانا حِنا في وقت حرب.. وأنا متأكد إنْ ولدك بخير ووصل بالسلامة.. بس عليكِ بالصبر.

في الأيام الأولي كانت تلك الكلمات تكفي لـ«أم مساعد» وربما تفرِحها أيضاً، لكن مع الوقت زاد

قلقها وأخذ صبرها ينفد وبدأت الشكوك تخامرها في أن ابنها جرى له شيء. لكنها لاتلبث أن تحاول إقناع نفسها وتقول: لكن لو حصل مكروه له، كان أبوه سيخبرنا. وهكذا كانت تتوه في داخل قلبها ونفسها بين القلق والطمأنينة، ويقل أو يكثر أحدهما على الآخر حسب الظروف والوقت.

وبالنسبة لـ«يوسف» فقد كان يعرف «مساعد» وعدم اهتمامه المعلوم، لكن أنْ تصل الأمور إلى هذا الوقت، ولا رسالة إلى أمه المسكينة فهذا قمة الجحود!

سأل «يوسف» في المجالس عما إذا كان هناك قادم من العراق أو من الزبير، فقيل له في مجلس «الشبلاوي»: أبْشِر.. هناك قافلة كاملة متوقع وصولها عنيزة خلال أسبوع أو أقل.

قبل ذهابه إلى المزرعة في الصباح الباكر، قصد «أم مساعد» وبشرَها بما سمع من وصول قافلة من العراق، وأكد لها أن رسالة «مساعد» ستكون معهم!

فرحت الأم بالطبع كثيراً بتلك البشارة المنتظَرة التي لم تسمع مثلها منذ زمن، وظلت تدعو لـ«يوسف» طويلاً بطولة العُمْر.

لم تمض ثلاثة أيام فقط على تلك الأخبار شبه

السعيدة حتى وصلت قافلة من العراق وتحديداً من البصرة، والبشارة الكبري كانت حملها لرسالة من «مساعد».

تلقفت الأم الرسالة بسرعة وركضت إلى بيت «يوسف» ليقرأها. فقد أجاد خريج «فك الخط» القراءة فعلاً.

قبل أن يقرأ الرسالة قال «يوسف» وهو يبتسم لـ«أم مساعد»: تراني يا عمتي أول مرة أقرأ رسالة.. والحمدلله أنها من شخص غالي علي وصديقي «مساعد».

صاحت الأم بصوت عال وقالت: عسى الله يطول عمرك ياحبيبي.

قال يوسف: «الزبير في ١٧ يوليو ١٩٤٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

أمي الغالية وإخواني الأعزاء..

وصلت إلى الزبير بعد رحلة شاقة ومتعبة ومرضت بسبب ذلك أسبوعا».

قاطعت «أم مساعد»: ما تشوف شر ياحبيبي.. والله كان قلبي حاس.. لكن المهم إنك وصلت.

وأكمل يوسف «ابوي استقبلني بالبصرة وما قصر

معاي وهو يسلم عليكم واجد ترى.. ويريد رضاك».
قاطعت «أم مساعد» مرة اخرى: الله يسلمه ويسلمك بعد.. أنا راضية عنكم رغم بعدكم عني.. لكن هذى قدرة الله.

وتابع يوسف الرسالة: ابوي حصل لي شغل مع تاجر نجدي هنا بالمدينة يبيع سمن حر.. وهو ترى خوش رَجال وأنا مبسوط بالشغل».

ردت «أم مساعد»: الله يسعدك ويهنيك بعد يا وليدي.

قال «يوسف»: خلينا نكمل الرسالة يا عمتى وبعدين قولي اللي تبين.

قالت «أم مساعد»: ما هو بكيفي ياوليدي.

أكمل «يوسف» الرسالة: «الرجال اللي اشتغل عنده اتفق مع أبوي إنهم يودوني مدرسة حكومية تدرس الأولاد ببلاش، وتعلمهم القراءة والكتابة ويمكن بعد أدرس اللغة الإنكليزية. وهذه المدرسة يسمونها المدرسة الرشيدية.. وهي مشهورة كثير بالزبير».

وقبل أن تقاطع «أم مساعد» هذه المرة، ختم يوسف الرسالة وقال:

«سلامي لك ولإخواني ولصديقي العزيز «يوسف». وأبي أقول شي قبل ما أختم الرسالة، وهو إني مشتاق

كثير لعنيزة وأهلها ومجالسها ونخيلها وحتى للمطازيز».

وضحكوا جميعاً عندما سمعوا المطازيز. على أن الأكثر من الضحك ذاته، هو ذلك الفرح العارم الذي اجتاحهم هي و«يوسف» و«أم يوسف» و«جواهر» اللواتي كن يستمعن لقراءة «يوسف» وهن فرحات بوصول الرسالة وبالأخبار السعيدة التي كتبها عن الزبير.

هذه الرسالة سوف تطمئنها على ابنها لشهرين قادمين على الأقل إنْ لم يكن أكثر. لكن يوسف يعتقد أنها لن تكفيها سوى شهر بالكثير.

لقد ايقظت هذه الرسالة التي وصلت من الزبير في الكثير من مشاعر الاشتياق لصديقه الحميم، الذي قضى معه أحلى أيام الطفولة والصبا وبدايات الشباب الأولي. وهي لم تفعل ذلك فقط بل أوقدت شعوره بأن هناك مرارة للفراق كما تفعل الأمهات عند فراق أولادهن لهن بالضبط. فلسن هن الوحيدات اللواتي يشعرن بفراق أولادهن عندما يتغربون خارج عنيزة، بل وحتى أصدقاؤهم الحميمون كذلك.

في الأيام التالية لِما بعد وصول رسالة الزبير التي احتفظ بها «يوسف» عنده في البيت، كانت الذكريات

والمواقف والحكايات تتوالى على ذهنه وهو يتذكر صديقه «مساعد».. العاشق والمشاغب.. العَجول في كل شيء.. والمتمرد أيضاً على كل شيء.
كان عندما يتذكره لايتذكره إلا بابتسامة، وأحياناً بضحكة صغيرة وبكلمة: الله يغربلك يا مساعد.
لم يتغربل مساعد في الحقيقة إلا عندما أحب «سارة الماضي» التي قلبت كيانه وعصفت بروحه الرقيقة؛ أما باقي أيامه فكانت مشاغبات هنا وهناك وسواليف وحكايات وفرفشة.
صحيح أن «يوسف» يملك صداقات ومعارف وروابط كثيرة هنا وهناك، وأكثرها طبعاً في المجالس وخاصة مجلس «الشبلاوي» الشهير، لكن صداقة «مساعد» كانت شيئاً مختلفاً تماماً، لم يعرف مدى عذوبتها وطعمها الجميل إلا عندما سافر وتركه لوحده في عنيزة.
حتى أكثر شباب عنيزة يعرفون صداقاتهم الحميمة القديمة التي لم تتغير، لكنهم كانوا يقولون إن «يوسف» لن يبقى في عنيزة طويلاً، فسوف يلتحق بصديقه في أقرب فرصة، بل كانوا يعتقدون بل ويرددون إن «مساعد» سوف يغري «يوسف» باللحاق به وبأي ثمن وبأية طريقة.

كل هذا يبدو مجرد كلام. فلا أحد يعرف بالضبط ماذا سيحدث في المستقبل، فلربما يحدث العكس ويرجع «مساعد» مثلا الى عنيزة وليس العكس.
لم يكن «يوسف» يصغي لتلك الحكايات والأقوال، فقد كانت القراءة والكتابة هي شاغله الرئيسي في تلك الأيام.
كان يوسف وقتها غارقاً في الاستمتاع بقراءة المجلات المصرية وخاصة مجلة كان يتابعها بانتظام اسمها «الثلاثاء». ولم تكن تنشر تلك الصور العارية أو صور الممثلات، بل كانت في معظمها مجلة جادة تهتم بأخبار العرب وتنشر مقالات سياسية وغير ذلك.
دفع الحماس بـ«يوسف» في أحد الأيام أن يشاور ابن الشبلاوي الصغير «أحمد» زوج «سارة» الذي كان يزوده بالمجلات والجرائد في مسألة ان يكتب لتلك المجلة رسالة صغيرة يتمنى لهم التوفيق! وبالطبع فقد شجعه وطلب منه أيضاً أن يقول إنه يقرأ المجلة في مجلس الشبلاوي!
وافق يوسف طبعاً وتحمس للموضوع، وفي إحدى الليالي انزوى في أحد أركان المجلس، وكتب ما يلي: «الأستاذ الفاضل رئيس تحرير مجلة الثلاثاء رفعت باشا تيمور.. حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فأخبرك يا أستاذي أنني من أشد المعجبين بمجلتكم الراقية، والتي اقرأها بانتظام كلما وصلتنا. ومع أنه يصلنا في عنيزة مجلات كثيرة وصحف مصرية مثل الأهرام وغيرها، إلا أنني أؤكد لك يا رفعت باشا أن المجلة منتشرة في المدينة ولها قراء طلبوا منى الكتابة لكم. وأود أن أعَرفُك على نفسي. فأنا يوسف الشميلان من مدينة عنيزة المشهورة في نجد وسط المملكة العربية السعودية. وهى مدينة كتب عنها الأديب اللبناني المعروف أمين الريحاني، ووصفها بأنها «باريس نجد»، كما أود أن أقول لكم إن مدينتنا جميلة وبها أسواق كثيرة، وفي كل مكان تجد نخيلاً باسقاً. وعنيزة تُصَدر التمور إلى كل مناطق الجزيرة العربية، وأهلها مشهورون بالذكاء والكبرياء.

كل ما أردت قوله إنني أتمنى لكم التوفيق وأن تزيدوا الصور في المجلة، وتكثروا من الكتابة عن قضايا العرب وخصوصاً قضية فلسطين. وعلى فكرة فأنا دائماً أقرأ مجلتكم الجميلة في مجلس «الشبلاوي» وهو أشهر مجلس للرجال في عنيزة. والسلام ختام».

سُعِد الاثنان بكتابة الرسالة، وانتقلت المهمة إلى «ابن

الشبلاوي» لإرسالها إلى القاهرة بالبريد بما في ذلك دفع رسوم البريد الجوي، وهي مسائل لم يكن «يوسف» يعرف عنها شيئاً على الإطلاق.

راحا بعدها ينتظران كل عدد من المجلة، ولكنها لم تشر إلى شيء مما ورد في الرسالة، و لم تذكر حتى أن رسالة وصلتها من عنيزة.

بعد شهر واحد تقريباً وصل العدد الأخير من مجلة «الثلاثاء» وبها مقاطع من رسالة «يوسف»، تقول: وصلتنا رسالة من قارىء من مدينة عنيزة بنجد بالمملكة العربية السعودية، يقول إنه معجب بالمجلة، ويتمنى زيادة الصور.. حاضر يا يوسف بيك».

كانت فرحة «يوسف» و«ابن الشبلاوي» لاتوصف تلك الليلة، التي قرأوا فيها خبر المجلة على الرسالة، لكنهم غضبوا لعدم كتابة المجلة عن مجلس الشبلاوي ولا عن كتابة أي شيء عن عنيزة!

ورغم كل ذلك تم الاحتفاظ بالمجلة في المجلس وراحوا مع الوقت يطّلِعون رواده عليها.

في أحد مساءات شهر أغسطس الحار تواترت الأخبار في عنيزة عن عودة قوافل العقيلات التي رحلت من المدينة قبل شهور متجهة إلى الشام وفلسطين ومصر.

كانت أغلب التوقعات تقول إن القوافل ستصل في الليل أو بعد المغرب، وإذا تأخرت كما يقول الذين رأوها وهم قادمون من الرياض، فستصل صباح الخميس على أكثر تقدير. لكن على عكس التوقعات والأخبار التي راجت في المدينة بكثافة، فقد وصلت العقيلات صباح الأربعاء الباكر، ولم يدر عن وصولها سوى القليلين.

ناخت الجمال في الصحراء القريبة من المدينة، واستراحت القافلة على الفور ونزل الجَمالة من عليها، وراحوا ينفضون الغبار عن ثيابهم وأحذيتهم المتسخة والمشحونة بتراب الصحراء .

كان الجو حاراً، فالشهر هو شهر أغسطس الذي لاتغيب عنه الشمس ولا الحر ولا العرق.

كان قُدُوم القوافل التجارية الشهيرة أشبه باستراحة المحاربين الذين قاتلوا وأبلَوا في الحرب، وسجلوا أسطورة شجاعتهم بالسيف والكر والفر. كأنهم محاربون أشداء لم يتخيلوا أن هناك راحة طويلة سوف تأتي، وأن الجمال التي طالما رافقتهم في عطشهم وجوعهم وتعبهم سوف تَنِيْخُ لفترة طويلة، بل لم يتخيلوا أنهم لن ينصبوا خيامهم للإقامة المؤقتة، أو أنهم لن يبحثوا عن حطب هنا أو هناك، أو بئر للماء أو حتى سراب.

عندما ناخت الجمال، بدت الرحلة الطويلة والشاقة والبعيدة والمتعددة الحدود والمدن والبلدان، وقد انتهت بسلام في عنيزة، حيث كان الأهالي في الانتظار منذ زمن، لتطلق النساء الزغاريد ويتوافد الرجال والشيوخ مترقبين المكاتيب والأشواق الحارة والتحيات من أعزائهم من الأهل والأقارب في الغربة.

أزاح الجَمالة أغطيتهم وغترهم وأعقلتهم، ورموا بكل شيء في الرمال وكأنهم يودعونها إلى الأبد، وتعبيراً عن فرحة الوصول إلى أهاليهم وأحبائهم.
كانت العقيلات قد وصلت في الصباح الباكر، وبهدوء كبير لم يعهده أهل عنيزة عنهم من قبل. وحتى ولو وصلت متأخرة أو مبكرة أكثر، فأهل عنيزة بالذات كانوا يحسون بقربها ويعرفون أسرارها. وبالرغم من تكاثر الأخبار وتزاحمها عن موعد وصولها إلا أن وقت إناخة الجِمال هو غير المتيقن. فأحياناً تتوارد أخبار بأن القوافل ستصل في الصباح، بينما تصل في الليل وهكذا يظل الأمر عصياً عن معرفة تواقيتها بدقة.
هذه المرة وصلت في الصباح الباكر، دون أن يتوقع ذلك أحد، ولكن الناس «شمت» رائحتها وتنفست هواء «الأشواق» القادمة منها، وعرفت من بعيد «رائحة المكاتيب» المحملة بها، وهواء الغربة الذي راح ينتشر في المدينة كلها.
كلها ساعات قليلة حتى هبت عنيزة إلى القوافل، وكان أول الواصلين إليها بعض التجار الذين ينتظرون بضائعهم من أثقال من الأقمشة والبنادق الطويلة ودِلال القهوة والعباءات والملبوسات والأدوية وأدوات الإبل وسكر البنات والبهار والقهوة والشاي

والصابون السوري وبعض الذهب والسجاجيد والمواد الغذائية غير المتوافرة في المدينة وغيرها من السلع والأدوات والمشغولات.
كانت العقيلات محملة هذه المرة بالكثير من البضائع، بحيث تستوعب السوق في عنيزة والأسواق الصغيرة المجاورة لها لفترة طويلة.
لم يكن التجار وحدهم هم الذين استقبلوا القوافل بالسرور والترحاب، بل كان الجميع بالانتظار. وكان في مقدمهم منتظرو المكاتيب وعلى رأسهم المسكينة «أم مساعد» التي سبقت الجميع، وراحت تسأل زعماء العقيلات واحداً واحداً: ماعندكم رسائل من الزبير، من ولدي مساعد؟ كان الجميع يقول لها: لا يا عمه.. القوافل لم تذهب العراق هذه المرة.. هناك قوافل غيرنا ذهبت وستعود قريبا. ولم تقتنع «أم مساعد» حتى سألت الجميع، وحتى قال لها الجميع: لم نأت من العراق.. حنا «مشومه».. ويقصد العقيلات الذين يذهبون الى الشام فقط.
كانت «أم مساعد» تقريباً هي الخائبة الوحيدة من العقيلات، إذ لم تحصل على مكتوب أو حتى على «شوق» من أحد في الخارج ولا على هدية من مغتربين.

حتى بعض ائمة المساجد خرجوا للقاء العقيلات في الضحي. وجلس العشرات في مجالس قريبة من مزرعة «المشيقر» التي يعمل بها «يوسف»، وكانت الأحاديث كلها عن هتلر والحرب.

كانت سواليف العقيلات ورجالها لاتنتهى، فبالرغم من أن أكثرها حول الغربة ومشاق السفر والتجارة، إلا أن بعضها وكان عن المدن التي زاروها كانت تثير متعة الاستماع لدى أهالي عنيزة.

ولأيام طوال كان زعماء وتجار العقيلات مدعوين على عشاء هنا عند هذا التاجر، وجلسة قهوة وشاي عند ذاك التاجر.

كانت الأسئلة لجماعة العقيلات كلها تُوَجه من فئة الشباب وتتركز على أفضل المدن للهجرة والعمل والإقامة. وكان العقيلات يجيبون على تلك الأسئلة برحابة وسعة صدر، ويشرحون للسائلين والشباب منهم بالذات عما رأوه وشاهدوه وما فعلوه، بل وكانوا يتحدثون عن طبائع البشر وعاداتهم وتقاليدهم، رغم إن أهل الشام ومصر وفلسطين كلهم مسلمون وعندهم أقلية مسيحية صغيرة.

في بعض الليالي كانت السهرات مع رجال العقيلات تطول وتكثر فيها الحكايات والقصص عن

الصعوبات التي يواجهونها أحياناً والمشكلات التي يلاقونها. لكن الشباب يعودون في كل مرة إلى موضوعهم المفضل وهو الهجرة. وكانت تلك الحكايات تطول وتطول أكثر من اللازم. وحدث في ليلة وفي مجلس الشبلاوي أن جلس شاب يتغنى ويحلم أو يُمَجد في الهجرة. فأغضب ذلك الكثيرين حتى من بعض الشباب الذين انبروا يدافعون عن مدينتهم العريقة وتاريخها. غير أن أحد رجالات العقيلات أسمعَ المجلس في تلك الليلة قصيدة جميلة، تقول:

«يا سيدي ويش غَربَك
في ديرة الحفا والشوك
يا رهيف يا مرود العين
يا ريت خدي ينقسم نعلين».

بعد تلك القصيدة القصيرة انفض مجلس الشبلاوي مبكراً على غير عادته.

في صباح اليوم التالي وصلت توصيات بيت الماضي الثري المعروف. وتحدثت نساء المدينة أن بنات الماضي وزوجته كن أكثر الرابحين من حملة العقيلات هذا العام، فقد وصلتهن مصوغات الذهب والسجاجيد والمناظر وغيرها، وأثار ذلك بالطبع حسد النساء وغيرتهن لأيام طويلة.

في السوق كان الانتعاش لايوصف، فقد كثُرت الخَيارات وتوالت البضائع في الوصول، وانخفضت الكثير من الأسعار رغم وضع الحرب الصعب، وفرش الكثير من تجار العقيلات بضائعهم في ساحة السوق. وزادت البضائع وكثرت حتى وجد الكثير من الباعة المتجولين فرصة لهم وحظاً في البيع في شوارع وأزقة السوق.

وكان الأكثر فرحاً بعودة العقيلات هم أصحاب المكاتيب، فقد وصلت مع القوافل عشرات وربما مئات المكاتيب، أكثرها لأهل عنيزة طبعاً وبعضها لأهالي القرى المجاورة.

صحيح أن بعض المكاتيب وصلت متأخرة كثيراً، وبعضها لم تأخذ وقتا من كتابتها، ولكن الشيء المؤكد أنها أفرحت الآباء والأمهات وأسعدتهم كثيراً، إذ كانوا ينتظرون بكل شغف أخباراً من أولادهم في الخارج.

كانت ليالي رجال العقيلات عامرة في مجالس عنيزة، وكان شوق الجميع لها يزداد كل مرة، بل إن أصوات دق القهوة في المجالس الليلية تكاد لاتتوقف على الاطلاق.

مجلس «العنيزاوي» اكتظ برواده في تلك الليلة

الحارة التي لاتطاق ببعض رجالات العقيلات، وهذه المرة كانت السواليف مخصصة للأشعار والقصائد. وكان هؤلاء الرجال مشهورين بأنهم شعراء بالسليقة وينظمون الشعر بذَلاَقَة وعفوية لم تُعرَف عن أحد غيرهم.

بعد أن روى لهم أحد الرجال الذين زاروا القاهرة ما فيها من مفارقات، ألقى على مسامعهم قصيدة طريفة تعبر عن إعجابه بما رآه في شارع فؤاد وسط القاهرة، وما شاهده من نساء جميلات كن يسرن فيه. قال:

«إنْ مِت في شارع فؤادْ ادفنوني
يا طا على قبري بنات مزايين
مما أكذب عقب ما شافت عيوني
بنات من نسل البوش والسلاطين
شفت الزهور بناعمات الغصوني
ما دونها حار على العسر واللين
أحد يدور للبضاعة زبوني
واحد تفسح قاضبين القوانين
شارع به أجناس على كل لوني
ما داج فيه أهل الحسد والشياطين

يا عاذل راعي الهوى ما تْلُمُوني

تنقد وعنك الناس ما هم بدارين

الناس في سجلات ما يسمعوني

الوقت عدل ومثله الناس عدلين

يا أهل العقول الطيبة سامحوني

كل برأيه يحسب العشر عشرين»

لقد انعش وصول «العقيلات» بقوافلها ورجالها كل شيء في عنيزة.. من الرسائل، إلى الأشواق، إلى الأحزان، إلى الأفراح، إلى الأخبار، إلى البضائع، إلى أحضان النساء، إلى دفء صدورهن، إلى الحكايات، إلى المشاعر الساخنة، إلى الجرائد والمجلات، إلى الحلويات الشهية.

قبل الظهر بقليل سمع سكان حي «الزويران» صراخاً وشتائم يصدران من بيت «بن خليف» المتشدد الديني والمتزوج من امرأتين.

كان الشيخ خليف كما خبرَه الناس متعصباً في أمور الدين إلى أقصى درجة، فهو يرفض كل جديد، وينبذ كل ما لايعرفه أو لم يسمع عنه. حياته كلها صلاة وقيام ودعاء وقراءة قرآن، ولا شئ آخر على الإطلاق. فلايتسامر في مجالس المدينة، وليس له أصدقاء ولايميل إلى الضحك، واشتُهِر كذلك بعصبيته وغضبه لأتفه الأسباب. علاوة على هذا فقد كان يكره النساء بشدة، ومع ذلك تزوج من

امرأتين لسبب غير مفهوم!
أما المفهوم في ذلك الظهر الحار فهي تلك الخناقة الساخنة بينه وبين زوجتيه. كان المارة في الزقاق ولاسيما الرجال يسمعون الصراخ ويضحكون على بعض الشتائم التي كان الشيخ يتبادلها مع الزوجتين، ثم يمضون في حالهم، ربما ليرووها في الليل بالمجالس العامرة أو لنسائهم.
وحدها المسكينة جارة لهم كانت تطالع المشهد بلذة عجيبة، وبفضول لايوصف. كانت الجارة قد سمعت خناقات الزوجتين مع الشيخ بن خليف مراراً، لكنها وجدت هذه الخناقة عالية الصوت أكثر ومحتدمة بشكل ملحوظ، وقدرت بذكاء المرأة أن شيئاً سيحدث أو مكروها سيقع.
وصدقت توقعات الجارة، فبعد أكثر من عشر دقائق من الصراخ والشتائم أعلنها الشيخ وبصوت عال للمرأة الاولي: أنتِ طالق. ثم أشار إلى المرأة الأخرى: أنتِ طالق.
وهنا تعالت صيحات المرأتين وبكائهما وزيادة شتائمهما له ولعناتهما عليه. أما الجارة المسكينة فما إن سمعته يطلق زوجتيه حتى صرخت من نافذة بيتها من الطابق الأول، وولولت بصوت عال واضعة

يديها فوق رأسها: الله أكبر.. الله أكبر.. من هول ما سمعت وشدة المفاجأة.
وراحت الجارة تولول متضامنة مع جاريتها. وفي لحظة اكتشف الشيخ أن الجارة أيضا تقف مساندة لهما، فطالعها من تحت ونظر إليها بشزر وغضب وقال: ... وأنتِ بعد طالق.
انتهت في دقائق معدودات وقبل صلاة الظهر مأساة بيت الشيخ بتطليق زوجتيه، ثم إلقاء الطلاق على جارتهم المسكينة!
لم يتوقف العويل في البيتين الجارين طوال فترة الصلاة، لكن الجارة جمعت أغراضها وثيابها واستعدت للخروج إلى بيت والدتها في الحي الثاني.
كانت الزوجة لسذاجتها وطيبتها الزائدة تظن أن أي شيخ دين يستطيع أن يطلق ما يشاء من النساء إذا وجد إحداهن مثلاً غير صالحة أو قامت بعمل لا أخلاقي أو ارتكبت خطأ فادحاً!
بعدما انقضت الصلاة جاء زوج الجارة ووجد زوجته تستعد للرحيل. فاستغرب الرجل ذلك بالطبع، وعندما سألها قالت: الشيخ بن خليف طلقني!
ضحك الزوج كثيراً وأرجع أغراضها إلى داخل البيت

وراح يسمع من زوجته الحكاية وهو يتفجر ضحكاً.
وقرر بعدها أن يرويها إلى إصدقائه ومعارفه باعتبارها طرفة ما بعدها طرفة.
كانت طرفة جارة الشيخ هي الطرفة رقم واحد في عنيزة لأسابيع كثيرة على الأقل. وأضفت تلك الطرفة جواً من الضحك بمجالس النساء، وترافق مع ذلك شعورهن بالفرح والسرور بما سمعنه عن تعيين «عدنان» قارىء وكاتب المكاتيب الشهير في مدرسة «النويصر» بسلك التدريس.
كان فرح النساء بالذات لـ«عدنان» بالغاً، فهو أكثر من صبر على بكائهن وهن يستمعن له وهو يقرأ الرسائل من آباء خوان وأبناء في الغربة، ولأنه أكثر التلاميذ تطوعاً واستجابة لمساعدة من يريد الكتابة لأهله في بلد الاغتراب. كما اشتُهر «عدنان» بالأمانة والصدق والإخلاص. كان باختصار شخصا «حبيبا»، فقد أطلقت عليه كل امرأة تعاملت معه وصف «الحبيب» الذي لايرد طلباً لأحد ولايطلب مقابلاً لما قام به.
ليس هذا فقط، بل إن «عدنان» وهو ابن تاجر في السوق متوسط الحال، كان تلميذاً نبيهاً موهوباً منذ إدخاله الصف الأول الابتدائي. وكان محبوباً من

جميع المدرسين والمدير بمدرسته.
تم تعيين عدنان بالمدرسة بعد تخرجه من الصف السادس الابتدائي ليكون مدرساً للتاريخ والجغرافيا. وقال له المدير يوم تعيينه: ... وربما ياعدنان نحتاجك في دروس أخرى! فكما تعرف المدرسة ينقصها مدرسون. وأنا أعتبرك ليس مدرساواحداً فقط، بل عشرة! وسامحنا يا الحبيب على الريالات القليلة التي سنعطيك إياها. ولكن ثق أنها بداية وسوف أزيدك حتماً.
لم يكن عدنان يفكر يوماً في المقابل المالي، ولو أراد لحصل عليها من عشرات الرسائل التي كتبها للناس في عنيزة.
ولم يكد الناس تتكلم عن أن صيف هذا العام قد جلب معه بعض الضحك والأخبار السارة، حتى تُوُفِي «الشبلاوي» الكبير الثري المعروف وصاحب المجلس الشهير ووالد زوج سارة الماضي.
لم تكن وفاة «الشبلاوي» متوقعة، فلم يكن مريضاً ولم يشكُ من شيء في أيامه الأخيرة، كما أنه ليس متقدماً في السن، وكان يتمتع بحيوية ونشاط كبيرين.
حزنت عنيزة كلها على وفاة الرجل. فهو صاحب خير

ومعروف بمساعدة الفقراء والمحتاجين، وكان يُقرِض الكثير من الأهالي ويساعد بعضهم بما في ذلك السفر للهجرة، مع أنه مُعرِض السفر رغم مغرياته الكثيرة إلى اي بلد قريب أو بعيد، بل ولم يبرح عنيزة على الإطلاق.

وعندما صُليَ عليه في الجامع الكبير شُيعت جنازته بجموع غفيرة من الأهالي الذين تناوبوا حمّل نعشه حتى القبر، فيما تواجدت النساء قريباً من الجامع وهن بكين عليه بحرق ولوعة.

نامت عنيزة ليلتها حزينة على وفاة الشبلاوي، لأنها فقدت ببساطة رجلاً من أكثر الناس حباً وحماسة ونخوة لمدينته.

بعد وفاة «الشبلاوي الكبير» في عنيزة بثلاثة شهور تقريبا حزن النجديون وخاصة أهل عنيزة بالزبير على موت والد مساعد في حادث غرق بنهر دجلة. فقد انقلب بهم المركب وهم في رحلة قصيرة بالنهر، واستطاعوا جميعهم النجاة إلا هو لأنه لم يكن يجيد السباحة.

كان أكبر حزن لـ«مساعد» هو أنه وجد نفسه وحيداً بلا رفيق أو صديق في هذه المدينة الكبيرة. وكان وقْع المأساة أكبر على والدة مساعد في عنيزة، فكيف تتدبر أمورها وكيف تواجه الحياة واحتياجات بقية الأولاد.

ومن ناحيته ورغم ظروفه الصعبة وكسبه القليل ودراسته الليلية استطاع «مساعد» تدبير مبلغ بسيط من المال وبعث به إلى والدته، ثم راح مع الوقت يوافيها بمبلغ بسيط شهرياً. في خضم هذه الأوضاع وضغطها القاسي والتي ألقت بثقلها على «مساعد»، حتمت عليه أن يتشبث بالعزم وأن يعتصم بالصبر، ويكافح كثيراً في العمل والدراسة، ولم يكن له بدّ من ذلك. وكانت توقعاته انه سوف يجد عملاً أفضل بمجرد حصوله على شهادة محترمة.

في نهاية فبراير ١٩٤١ وُفق «مساعد» في أن يحصل على شهادة الابتدائية من مدرسة «الرشيدية» الحكومية في الزبير، وبتفوق كبير على زملائه من النجديين والعراقيين.

أخبر «مساعد» صاحب دكان السمن الذي يعمل عنده بنجاحه، ثم غدا إلى بيته وهو على يقين أنْ لا أحد سوف يفرح له. إلا أن «أم علاوي» جارته الزبيرية وبناتها الأربع كن قد علمن بيوم تخرجه، فوقفن عند الباب بعد وصوله بقليل لكي يهنئنه، وقالت «أم علاوي» له: إنْ شاء الله الجامعة عيوني. شكرها «مساعد» بخجل بينما راحت بنتها الصغرى «مائدة» تطلق الزغاريد.

كان سرور «مساعد» بنجاحه لايوصف، فكتب في اليوم نفسه رسالة إلى «يوسف» يقول فيها: «لاتتصور مشاعري وأنا أحمل الشهادة. لقد أشعرتني بالفخر والاعتزاز بنفسي، وجعلتني أفهم العالم أكثر وأكثر».

قبل محاولته ترك عمله البسيط كبائع، تعَرف «مساعد» على شاب عراقي اسمه «سعدون»، وكان هذا الرجل يلتقي به في مكتبة الزبير الأهلية، التي كانت تفتح أبوابها للجمهور في المساء، ومع مرور الوقت نشأت بينهما صداقة لم تلبث أنْ تقوى وتتوثق. في تلك المكتبة ومع «سعدون» توسعت آفاقه للمعرفة، فراح يقرأ الكثير من الكتب، ويستعير الكثير منها في أيام الإجازات، علاوة على الكتب التي كان يعطيها إياه صديقه.

ومع مضي الوقت يزداد مساعد تمتعاً بقراءة كتب التراث والشعر والكتب الكلاسكية الإسلامية، ثم راح يقرأ بعض الكتب السياسية وخاصة «سلامة موسى» «وساطع الحصري» وبعض الكتب القومية.

وبعد شهور قليلة حفظ أمناء المكتبة وجه مساعد، وكانوا يسمونه «المثقف النجدي»، فهو آخر شخص يغادر المكتبة وأكثر مرتاد يستعير كتباً. وشغله نهم القراءة عن حتى محاولة البحث عن عمل جديد به

معاش أفضل يؤمن معيشته ويوفر منه مبلغاً يرسله إلى أمه كل شهر في عنيزة.

ومع الأيام أصبحت المكتبة هي ملاذه وهي وقته، بل هي حياته كلها. وكان يردد لمعارفه في السوق القصيدة الجميلة التي قيلت عن المكتبة أيام تأسيسها عام ١٩٢١ ، والتي حفظها على ظهر قلبه، وتقول:

«إن الزبير روضة
بالعلم أضحت مخصبة
وقد زهت ابهلها
ذوي المزايا الطيبة
أما ترى ابن ثاقب
أنشأ فيها مكتبة
لطيفة بديعة
فائقة مرتبة
ملك العراق فيصل
نسل الملوك النجَبَه
أهدي إليها كتباً
من حُسْنِها مذهَبَه
وولسن من بعده
مد إليها سببه
وغيره طوائف
بالسعد تعيي الكتبه
يا ناصر بن ثاقب
لا زلت عالي المرتبه»

خارج المكتبة كان «مساعد» يعيش في الزبير سعيداً والأهم من ذلك راضياً وقانعاً بما هو فيه. فبيته الصغير ذو الغرفتين الصغيرتين والحوش والمطبخ والحمام كان قريباً من السوق فكان يقصده ماشياً، وكان يفعل الشيء نفسه مع المكتبة، التي لم تكن تبعد عن بيته سوى كيلومتر فقط.

وكانت معيشة «مساعد» بسيطة جداً كما هو حال أقرانه من وافدي أهل نجد الذين كان يلتقيهم دائما في السوق. فهو يتناول الطعام مثل أهل الزبير من «مَرْقُوق» و«مْطَبق» و«مْوش» و«قُبُوط» وأحيانا بعض الأكلات العراقية الخاصة التي ترسلها الجارة «أم علاوي».

كان نادراً ما يزور بعض المجالس القريبة لبعض التجار. ورغم أنه كان يسعد بالمجالس النجدية إلا أن نهم القراءة جعله يبتعد كثيراً عنها، خصوصاً مع توفر مصباح كهربائي في بيته. وكذلك تلك المروحة

العجيبة المعلقة في سقف الغرفة والتي كانت تحيل الحر إلى جو منعش جميل!

الحياة في الزبير مقارنة بعنيزة مختلفة تماماً عند «مساعد». فهنا كهرباء تنير الطرقات والليل يمكن التعايش معه بل والسهر فيه. وهنا السيارات وأبواقها المزمرة تتحرك بالطرقات ولاتهدأ حركتها إلا مع المساء بأمر الحكومة. هنا أيضاً الجرائد الكثيرة والمدارس المتنوعة والسوق الضخم. هنا كذلك مجالس خاصة للشعراء وأماكن تجَمع للمثقفين، وهنا المقاهي العامرة لشرب الشاي والقهوة.

غير أن أكثر ما أدهشه بل وأصابه بالذهول هو رؤية النساء وهن سافِرات الوجوه غير مغطيات الروؤس، إنهن فقط يلبسن العباءات السوداء بحيث تغطي أجسادهن حتى الكتف. فـ«مساعد» وغيره من أهل نجد لم يتعودوا أن يروا نساءً بمثل هذا الشكل الغريب، أي رؤية وجوه النساء ورؤية الشعور الجميلة والطويلة وهي منسدلة على أكتافهن. ولقد شكلت رؤية النساء ووجوهن المكشوفة صدمة كبيرة بالنسبة له. فالتعود على رؤية نساء بهذا الشكل احتاج منه في الأيام الأولي إلى شجاعة ما بعدها شجاعة. فقد شعر أن خجله الشديد جعله يحس أنه المرأة وهُن الرجال!

كان منظر النساء في السوق وهن يشترين مباشرة ويخرجن من بيوتهن في أي وقت يشأن أمراً خارجاً عن توقعات. كان يقول لنفسه: وش هذا.. الحريم في كل مكان، وأنا عمرى ما شفت وجه إلا أمي وأختى، وهنا ما في واحدة تستحي على وجهها.

لا.. لاتشبه الزبير عنيزة إطلاقاً. مدينتان مختلفتان في الطبائع والتطور وفي الناس أيضاً.

وفي أحد رسائله إلى صديقه «يوسف» كتب يقول له: «بدأت أحب الزبير والزبيريين. لقد تعلمت عندهم وأصبحت قارئاً نهماً في مكتباتهم، وصرت يا يوسف إنساناً عصرياً يفهم ويعي كل شيء. لكن هذا لايعني أنني نسيت مدينتي عنيزة. إنها مدينة القلب والروح التي ستتطور يوماً ما وتصبح أفضل من الزبير، بل ربما أفضل من البصرة وكل بلدان العالم. إننى يا يوسف سعيد بهذه الحياة الراقية وبهؤلاء الناس الطيبين الذين يشبهون طيبة أهل عنيزة».

بعد شهور من المداومة في مكتبة الزبير نبهه صديقه العراقي «سعدون» بضرورة البحث عن عمل جديد. وبالفعل يذهب «مساعد» من أجل هذا الغرض إلى بعض دكاكين التجار الكبار الذين لايترددون في الترحيب به في الاشتغال عندهم، لكنه يكتشف أن

الكثير من أعمالهم التجارية وخاصة مع الهند تتطلب معرفة اللغة الإنكليزية قراءة وكتابة، والتي لم يكن يجيدها وقتها، ولعل هذا ما جعله يتحين أية فرصة ليتعلم ولوا شيئاً يسيراً منها.

وجاءته الفرصة هذه المرة في «المدرسة الحديثية»، فقد سمع أنها تعطي دروساً في اللغة الإنكليزية بالمجان ولكن في المساء، وهذا الأمر ضايقه كثيراً، لأنها ببساطة سوف تقتطع ساعة واحدة يومياً من وقت القراءة الذي لايساوم عليه شيئاً.

حاول «مساعد» العثور على مدرسة أخرى تعطي دروساً في فترة العصر مثلاً، ولكن بلا جدوي، ولذلك قرر مضطراً الدراسة ليلاً بـ«المدرسة الحديثية»، ثم مواصلة القراءة.

ارتاح في البداية من دروس التهجئة والحروف الإنكليزية واستساغها، لكنه مع الوقت أخذ يخالجه شعور بأن هذا النوع من التعليم، وفي ظل أن من يدرسون معه كانوا متوسطي الذكاء، سوف يعني أن الدراسة ستحتاج إلى سنوات طويلة.

وعندما أخبر صديقه «سعدون» قال له إنه يعرف أستاذاً يهودياً في المدينة يدرس في الثانوية العامة، يعطي دروساً خصوصية في الإنكليزية في المساء.

شعر «مساعد» بالطبع بتخوف من هذا الشخص اليهودي وقال لصديقه ببراءة شديدة: هل عندكم يهود هنا؟

ضحك سعدون وقال: ياصديقي لاتخف إنهم عراقيون مثلنا وطيبون.. لاتخف منهم.. ثم لا تنس أن لكم دينكم وليَ دين.

- صحيح.. ولكن الموضوع ليس بهذه السهولة بالنسبة لي.. أنا قادم من عنيزة.. من نجد.. وعمرنا حتى ما سمعنا أو شفنا يهود.

- هَون عليك يامساعد.. الرجال بيساعدك ما بياكلك. ويمكن يعطيك دروس مجانية بعد إذا قلنا له إنك فقير وعلى قد حالك.

- يهودي ويعطي دروساً مجانية.. والله ما أظن.. لكن أبَشوف أفَكر وأرِد عليك.

وبعد تفكير طويل، وافق «مساعد» وذهب إلى الأستاذ اليهودي «عزرا»، وبدأ معه أولي الدروس، لكن على الصعيد الشخصي كان «مساعد» يتعامل معه بكل حذر وريبة.

أخذ الصيف في عنيزة في الانحسار تدريجياً، فيما بدأ الخريف يحل، وكان «يوسف» أكبر الخاسرين من وفاة الشبلاوي الكبير. فخسارته لم تكن تجارية أو ما شابه ذلك، ولكن لأن المجلس الكبير الذي كان يوفر الكثير من الصحف والمجلات باشتراكات منتظمة تأتي خاصة من مصر والعراق، قد توقفت بسبب عدم الاستمرار في الاشتراكات.

وقد سبب ذلك ألماً قاسياً لدى «يوسف» الذي أدمن كثيراً على قراءة تلك الجرائد والمجلات، واعتبرها زاده الثقافي الوحيد. وبشكل مؤقت استعار من مجلس الشبلاوي بعض الصحف والمجلات القديمة

وراح يعيد قراءتها.

وفي إحدى الليالي قال «قبلان» أحد أبناء الشبلاوي إنه وإخوانه يفكرون جدياً في إعادة الاشتراك في الجرائد والمجلات العربية ولو بعضها، خاصة السياسية منها على الأقل لمتابعة تطورات الحرب العالمية.

شجع «يوسف» «قبلان» طبعاً على ذلك، وقال له: ترى ميزة مجلسكم إنه به الكثير من الصحف والمجلات. وهذا شيء يعلي من شأنه ويكبر قيمته عند أهل عنيزة.

كان «يوسف» صادقاً، فالكثير بل الغالب من مجالس عنيزة لم يكن بها سوى سواليف، والقليل منها تمتلك أجهزة راديو يسمع رُوادها منه بعض الأخبار والقرآن الكريم، أما الجرائد فهي تتوفر حسب رحلات «العقيلات» مثلاً أو زيارات أهل عنيزة من البحرين والكويت والهند.

كان أكثر من اهتمام «يوسف» بالجرائد، اهتمام والدته بوضع أخته «جواهر» المسكينة التي يتقدم بها العمروهي بلا زوج ولا أولاد، وهي في خشية من أن تموت وتتركها هكذا عانس.

لم تنته معاناة «جواهر» عند انتظار العريس العصي

على الإتيان! فقد كانت تقول كل مرة نفس الكلام وتحدث نفسها وتبكي، وفي الأخير تقول وما الفائدة؟

بعد أيام قابل العم «سعود المقبالي» صاحب دكان القماش في السوق «يوسف» في النفود عصراً، وتحدث معه حول رغبته في الزواج من أخته «جواهر»!

جاء الكلام مفاجئاً لـ «يوسف»، ونزل عليه كالصاعقة. فوعده بالتفكير واخبار والدته واخته والرد عليه بأسرع وقت.

كان العم سعود تاجراً بسيطاً إلا أنه متزوج من امرأتين وأنجب منهما أولاداً كثيرين، هذا فضلاً عن أنه كبير في السن بالنسبة إلى اخته إذ هو في منتصف الستينات من العمر.

ذهب «يوسف» وأخبر والدته بالموضوع، ولم تطق أن يكمل كلامه عن «العم سعود» حتى أظهرت فرحتها الكبيرة. لكنه قال لها: ترى الرجل عنده حُرمتين وأولاد كثيرين وهو كبير في السن. فردت والدته بسرعة: هَين.. كلها مو عيب بالرجال.. والأهم عندنا ستر البنت ويكون عندها رجل يحميها ويصونها، وما تبقي كذا بدون رجل.. وبعدين يا وليدي الأهم هيّ.

وبالفعل أخبرت «أم يوسف» ابنتها «جواهر» بالمتقدم

الكبير وشرحت لها كل شيء. فردت: أمهلوني.

راحت «جواهر» تفكر في أمر هذا الزواج وهذا الشخص الكبير الراغب في الزواج، وصاحبها إحساس بأن كل أحلامها وأمنياتها ذهبت مع ريح الخريف الحالية. فأين الشخص الوسيم الذي طالما تمنته؟ وأين الرجل الثري الذي انتظرته؟ واين ولد الحمولة الشاب المملوء بالحيوية والنشاط؟

أمضت «جواهر» العديد من الليالي وهي في تفكير وتأمل، فتقرر مرة الموافقة، ومرة تفكر بالرفض والعيش بلا رجل أفضل من رجل قدمه الأولي في الارض وقدمه الثانية في القبر!

راح تفكيرها بعيدا، وبدأت تمعن في تصور حالها فيما يقبل من زمن بعدما تتوفي والدتها بعد عمر طويل، وبعد أن يتزوج شقيقها. هل تبقي وحيدة في البيت؟

أرعبتها الفكرة كثيراً، وأبقتها قلقة لفترة طويلة. وفي النهاية كان تصور بقائها في البيت وحيدة هو الذي جعلها تقرر الموافقة، فزواج بائس خير من أنْ تظل وحيدة تخاطب الأشباح، وتكسب ود القطط في البيت.

توقعت الأم و«يوسف» أن ترفض «جواهر» هذا الرجل

غير المتوقع الراغب في الزواج منها. وتوقعا أن تعاند وتختار البقاء عانساً أفضل لها من هذا الزواج البائس الذي أتى متأخرا وبلا قيمة!

غير أنها بعد يومين أبلغت والدتها بالموافقة. وبالطبع فقد سعدت الأم و«يوسف» أيضاً! فرغم أنه تمنى لها زوجاً وزواجاً أفضل من ذلك، إلا أن هذا هو النصيب وتلك هي أيضاً رغبتها التي طالما احترمها وأحبها كثيراً.

وتم عقد القران بسرعة وبدون حفلة أو حتى مراسم زواج معتادة، وانتقلت جواهر بحزنها إلى بيت المقبالي لتنضم إلى زوجتيه السابقتين.

في تلك الأيام راحت «أم يوسف» تستقبل نساء الحي وبعض نساء عنيزة المهنئات بزواج «جواهر». وكانت تستقبلهن وهي في حال من الفرح والسرور لم يشاهدنها فيها منذ زمن طويل. ولعل أكثر من لاحظ تلك السعادة على وجه «أم يوسف» هي العمة «دلال» جارتها القديمة والمشهورة في الحي بتدينها الشديد، وتعبدها الدائم. فقد كانت لاتذكر شيئاً إلا وتذكر الله أولاً. وكانت بسبب جهلها وسذاجتها تربط اسم الله في كل شيء، وفي كل حكاية إلى درجة كان كلامها يبدو غير منطقي، وفي أحيان كثيرة يكون مضحكاً.

وروت العمة «دلال» لـ«أم يوسف» وبعض الحاضرات شكواها من بعض النساء اللواتي يستلفن مصوغاتها الذهبية في كل مرة يحتجن إليها في حفل زواج أو مناسبة سعيدة، وكانت العمة تعطيهن كل ما يَرِدن بطيبة خاطر.

وتكمل العمة دلال: ولكن يا وخياتي.. لقيت أن ذهبي بدا يتلف وعرفت إن السبب هو الله ثم الحريم.

ضحكت «أم يوسف» وصاحباتها كثيراً على العمة «دلال» في وضع اسم الله قبل كل شيء. ولكنها روت لها قصة أخرى عندما قالت إن عندها في البيت تمر تالف لايستطيع أكله إلا الله ثم الحمير! فضجت النسوة بالضحك ولم يتوقف ضحكهن حتى بعد خروج العمة «دلال» من بيت «أم يوسف».

مضت السواليف الجميلة في بيت «أم يوسف» كل يوم، وتحول بيتها إلى مجلس مع الوقت وبدا وكأنه مجلس «أم سلطان» الشهير.

وتواصلت السعادة أكثر مع «يوسف» عندما بشره «قبلان» بأن إخوانه في مجلس الشبلاوي قرروا الاشتراك مرة أخرى بجرائد ومجلات مثل: «المصور» و«الاثنين والدنيا» وبعض المجلات العراقية مثل «حبز بوز» وغيرها. فأفرح هذا الخبر «يوسف»

أكثر من فرحته بزواج أخته «جواهر».
قبل انقضاء الخريف ترددت الشائعات عن قرب رحيل قوافل العقيلات من عنيزة وبريدة متجهة هذه المرة إلى العراق. ومع انتشار هذه الشائعات راحت عنيزة تستعد بالمكاتيب والأشواق مرة اخرى.

ضحك «يوسف» طويلاً وهو يختم الرسالة التي تلقاها لتوه من الزبير من صديقه «مساعد». فقد ختم الأخير رسالته بقوله: أنت يا صديقي يوسف الفلاح المثقف الوحيد في عنيزة وفي الجزيرة العربية وربما في العالم كله»!
وأثار هذا الكلام الكثير من شجون «يوسف» على وضعه وعمله ومستقبله. فلقد شعر أن صديقه يسخر من عمله في المزرعة حتى الآن، وأنه حان الوقت لتغيير العمل، والاتجاه إلى عمل آخر سواء في عنيزة أو في الخارج يناسب مقامه الحالي كقارىء وكاتب وخريج «مدرسة فك الخط».

غير أن شعوراً خفياً صار يلازمه دائماً بخصوص العمل فلاحاً. فهو لايشعر أن هذا العمل يعيبه، فالكثير من أبناء المدينة وكبارها يعملون في الحقول، وأرزاقهم وأرزاق عيالهم تأتي من مهنة الزراعة هذه. كما لم يشعر بعد الذي تعلمه والذي قرأه أنه يتعارض كثيراً مع كونه فلاحاً.

ورغم كل شيء وكل تلك الهواجس إلا أنه يقرر في إحدى تلك الليالي أن يكتب رسالة إلى «مساعد» في الزبير تكون بمثابة «رد اعتبار»!

يستهل الرسالة أولاً باخبار عنيزة.. من وفاة الشبلاوي الكبير، إلى زواج أخته «جواهر»، إلى تعيين التلميذ الشهير قارىء الرسائل المعروف «عدنان» مدرساً في مدرسة النويصر.

وبعد تلك الأخبار كتب يقول: «لا زلتُ يا صديقي العزيز أحب الفِلاحة، بل وأعشقها، وأموت في زراعة الأرض وريها. هل تعتقد أنني أخجل من ذلك؟ بالعكس، إن هذه المهنة تزيدني فخراً كل يوم، واعتزازاً كل وقت. بل إنه لايوجد عندي أدني تفكير بمغادرة هذا العمل.

الفِلاحة هي عملي وحياتي، ولا أدري إلى أين سوف تأخذني. وسواء كنت مثقفاً أو جاهلاً يا صديقي فلا

فرق عندي في ذلك، فالأرض سوف أفلحها كل صباح وبنفس الهمة والنشاط.

إنها عملي منذ الصبا، وهي شغل آبائي وأجدادي، إنها نخيل عنيزة، نخيل بلادي الجميلة، فهي من حَفَرت أسماءهم وسجلت ذاكرتهم وروت حكاياتهم وأمجادهم وحتى حروبهم، ولم تنس حتى شقاءهم وعرقهم.

هذه أرضي وهذه تموري ونخيلي الخضراء.

لا أعرف عنيزة يا مساعد بدون هذه النخيل الجميلة، ولا أعرف عنيزة بدون هذه الأرض الخصبة، لا أعرف بيتاً في المدينة لايأكل من ثمارها وتمورها، ولا أعرف سعفاً من نخيلها لايظلل بيوتها».

اكتشف «يوسف» نفسه وهو يكتب بتلك الحماسة والشاعرية كيف هو يحب عنيزة ويعشق أرضها، كأنه يقول لـ«مساعد»: ارجع إلى بلادك.. كفاك هجرة وغربة.

غير أنه بعد أن سلم الرسالة إلى المسافر الراحل إلى البصرة، شعر بأنه قسا كثيراً على «مساعد»، فهو الوحيد ربما في المدينة الذي يعرف ظروف وأسباب سفره وهجرته، بل ويعرف عذابه الطويل في حب «سارة الماضي»، لكنه بعد هذا اللوم الذي وجهه

لنفسه قال: أنا أعرف «مساعد» وهو سيفهم قصدي ويعرف كم أنا أحبه.

هذا النوع من الحب الذي يكنه «يوسف» لـ«مساعد» عانت منه «سارة الماضي» كثيراً منذ بداية زواجها من «ابن الشبلاوي». صحيح أنها تعيش وكأنها ملكة في قصرها، تأمر عشرات الخدم وتنهى.. تصرخ على هذه وتطلب من تلك إحضار ما تريد.. يجلب لها زوجها كل ما تريد حتى ولو كان «لبن العصفور»! لكنها مع كل هذا تشعر أن قلبها لا ينبض حُباً، ونبضاتها لاتُشعِرها بعشق ما مع هذا الرجل الثري والكريم.

في لحظات تأملها في المرآة والتي لم تتوقف حتى بعد زوجها، كانت «سارة» تسال نفسها كل مرة: هل أنا سعيدة يا ربي؟ وتجيب على المرآة وهي حزينة: لا.. لست سعيدة.

أحياناً تقول لنفسها: أليس هذا كل ما كنت أتمناه؟ بل أليس هذا كل ما تتمناه أية امرأة في الدنيا من دلال وثراء وكرم وقصر وخدم وغير ذلك؟

وفي إحدى لحظات مناجاتها مع نفسها صارحت روحها بسؤال مفاجىء خرج هكذا من قلبها بدون استئذان: لو تزوجت ذلك الشاب الذي مات في حبي

وهو «مساعد».. هل سأكون سعيدة معه؟

كانت مشكلة «سارة» أن الكثير من الأسئلة التي تطرحها على نفسها بل ربما كلها كانت لاتجد لها إجابات. بل حتى بعض الأسئلة التي كانت تطرحها على أمها كانت لاتحصل على إجابة تشفي غليلها.

في كل مرة تجيئها صديقاتها وزائراتها كانت تتصَنع الشعور بالسعادة الوهمية التي تعيش في قصرها، وكانت تتحدث بفخر عن هذا الرجل الذي يعبدها والذي يلبي طلباتها ويجعلها ملكة.

كانت تقول لصديقاتها دوماً ليس هناك أعظم من زوجي، وليس هناك أجمل من هذه الحياة التي أعيشها.. سعادتي لا أستطيع وصفها!

ولكن عندما تخرج النساء من قصرها، سرعان ما تعاودها تلك المشاعر الحزينة. كانت تعترف بتناقضها وتبوح لوالدتها بذلك التناقض بين ما تقوله لصديقاتها وبين ما تشعر به فعلاً، غير أنها تستمر في تلك اللعبة راضية بها، بل ولشعورها أنها لا تمتلك حلاً آخر.

عند «جواهر» شقيقة «يوسف» التي تزوجت لتوها مع الرجل الكبير «سعود المقبالي» كانت اللعبة مختلفة. فقد كانت سعيدة مع زوجها الذي أشعرها بالحنان

والمودة ووفر لها كل ما تريد، وعطف عليها وأغدق عليها بالمال. لم تكن تتصور أن الحياة مع «المقبالي» ستكون بهذه الصورة. فقد كانت تتوقع الرجل إنساناً مزعجاً ستعاني التعب في رعايته، ويكون لها مجرد زوج بالاسم فقط. لكن معاشرته إياها أثبتت لها أنه رجل حنون وطيب ويعاشرها بكل احترام وحب، بل واكتشفت أنه يفهم النساء ويعرف فيم يرغبن وماذا يحتجن.

ولعل من الغريب أنه رغم هذه السعادة غير المتوقعة التي تعيشها «جواهر» مع «المقبالي» فإنها كانت تشتكي دائماً أمام صديقاتها من زواجها التعيس ومن مأساتها في العيش مع رجل كبير!

كان هذا قمة في التناقض مارسته «جواهر» لفترة طويلة رغم تعنيف والدتها لها على ذلك!

وفي الحقيقة إنها هي نفسها لم تكن تعرف السبب وراء ذلك! كانت تقول لوالدتها أحياناً: ربما أفعل ذلك خوفاً من الحسد والغيرة! وربما أفعل ذلك بسبب شعوري الدائم بأن زوجي الطيب لن يدوم ليَ إلى الأبد، فهو إما أنه سيموت في القريب أو إنه سوف يرجع إلى زوجتيه وأُمي عياله. ثم يتركني وحيدة.

كان رد والدتها دائماً هو أن المرأة يجب أن تعيش

يومها وأن تسعد بنصيبها مهما كان قدْره ووقته. أما الحسد والغيرة فهذا شغل حريم، عليها أن تتركه في الحال. بل وتقول الحقيقة لصديقاتها مهما كانت صدمتهم أو دهشتهم كبيرة وقاسية!

بعد مضي بعض الوقت اقتنعت «جواهر» بكلام والدتها، لذا راحت تتحدث بكل فخر وثقة عن زوجها العجوز لكن الحنون والطيب والكريم، ولم تجد من صديقاتها هذه المرة سوى همسات بينهن تعبيراً عن استغرابهن من التغَير الذي قلَب كلامها عن الزوج.

بعد شهور قليلة أحرز «مساعد» الكثير من التقدم في دراسة اللغة الإنكيزية على يد المدرس اليهودي العراقي «عزرا». غير أن تلك الدروس، رغم تحذيرات صديقه «سعدون» من طرحها مع المدرس اليهودي، كانت تتخللها في بعض الأوقات أسئلة صريحة وأحياناً وقحة من «مساعد» لـ «عزرا» حول اليهود والقضية الفلسطينية والصهيونية، والتي كانت تضج بها صحف العراق ويحرص «مساعد» على متابعتها.

كان المدرس «عزرا» يقول لـ«مساعد» دائما: أُترك عنك تلك النقاشات فهي لن تعلمك ولن تغيرك ولن

تطورك. ويردد في كل مرة: الإنكليزية هي التي سوف ترقيك وتفيدك حتماً.

وفي الحال يرد مساعد: صحيح.. مثلما فعلت معكم في فلسطين.

ويدافع عزرا: أنت كل شيء عندك سياسة.. أنا أقصد اللغة لا الإمبراطورية.

كان فضول «مساعد» أكبر من كل شيء، لكنه مع ذلك كان يدرس ويقوم بالواجبات التي يعطيها إياه المدرس أولاً بأول. كان يشاغب المدرس ليعرف رأية ومواقفه. وفي معظم تلك النقاشات الساخنة كان «عزرا» يعترف له بأنه لايؤمن بالصهيونية ويحاول إفهامه بالفرق بينها وبين اليهود، بل قال له علنا إنه ضد قيام دولة إسرائيل في فلسطين بالمطلق.

ومرة عندما قال له «مساعد»: ولكن اليهود عصابات تقتل العرب في مدن وقرى فلسطين بلا رحمة مع أنهم ليسوا صهاينة. هنا استجمع عزرا قوته وقال بصوت غاضب: أنا عراقي بالكامل ولكني يهودي. لست صهيونياً ولا أود أن أكون، ولن أذهب إلى إسرائيل، فهي ليست وطني ولا أعرفها ولا يعرفها أهلي كلهم.

كانت سخونة وبرودة النقاشات تعلو وتهبط على

حسب الأحداث الجارية في فلسطين، وعلى حسب روايات الصحف العراقية التي كانت الزاد الوحيد لـ «مساعد»، ولـ «عزرا» أيضاً في مفارقة عجيبة.

وعندما أنهى «مساعد» فترة أربعة شهور قال له عزرا: سأوفر عليك بعض النقود، وأقول لك بصراحة إن ما درسته الآن يكفي وربما يزيد لكي تجد وظيفة محترمة، والأهم في رأيي أن ما تعلمته الآن يحتاج إلى ممارسة لغوية يمكن أن تجدها في قراءة رسالة أو كتابة رصيد أو أي شيء.

وبالفعل توقف «مساعد» عن دروس الليل مع «عزرا»، لكن معرفته إياه وعلاقته به استمرت في شكل زيارات متقطعة كان يقوم بها له بين فترة وأخرى.

وبدون عناء يُذكَر حصل «مساعد» وبسرعة غير متوقعة على وظيفة محاسب في محل تاجر نجدي من أهل عنيزة أيضاً يدعي «يوسف الجبراوي» يعمل في تجارة مواد البناء وأغلبها يجلبها من الهند.

كان العمل مع «الجبرواي» ممتعاً وخاصة تحرير المكاتيب إلى الهند وقراءة الرسائل الواردة وتسجيل ملاحظات التجار ورغباتهم، ومتابعة مواعيد الشحن وبوالص التأمين ومعاينة أنواع وعينات البضائع وغيرها.

وفي هذا الجو التجاري كان «مساعد» يعايش دنيا أخرى، ويستمتع بعالم جديد لم يألفه من قبل. كان بعمله الحالي من الجهد الشاق والمتعة ما يكمل الاثنين ويثمر عن نتائج طيبة على صعيد العمل. حتى المرتب الشهري التي تم احتسابه له كان ممتازاً بحيث صار يخصص جزءاً منه لشراء الجرائد التي صار مغرماً بها مثل صديقه «يوسف»، كما استطاع تخصيص مبلغ جيد أيضاً لوالدته وإخوانه في عنيزة.

والأهم من كل ذلك فى عمله هي معاملة التاجر «الجبرواي» الطيبة وثقته به من أول يوم مارس فيه العمل عنده. فقد كانت الثقة عندهم هي الأساس خاصة بعد أن عرف عن أصله وفصله.

في الشهور الأولي وخاصة في فترتي الصباح والعصر كان «مساعد» مشغولاً وسعيداً بعمله الجديد، لاسيما وأن هذا العمل أعطاه الفرصة أيضاً للتدرب على تعزيز وتوثيق ما تعلمه من اللغة الإنكليزية. وفي أحيان كثيرة كان يأخذ أوراقاً من الدكان ويذهب بها إلى مدرسه السابق «عزرا» ليستفسر منه عن بعض الكلمات أو التعابير أو العبارات المدونة فيها التي لم يفهمها.

وبعد هذه المرحلة تعزز شعور «مساعد» بأنه أمسك بخيوط ومتطلبات ومهام عمله جيداً، واستطاع في فترة وجيزة أن يلم ويحيط بكل شيء يتعلق بالعمل ويعرف تفاصيل أدق الأشياء، وأن يحفظ كل أسرار العمل التي مرت عليه، فكان كل ذلك مصدر سعادة وارتياح في نفسه.

هذه السعادة والثقة بالعمل ظهرت عليه واضحة حتى أمام جيرانه «أم علاوي» وبناتها، فقد شعرن أن الشاب النجدي المتواضع في كل شيء أصبح مع الوقت شيئاً آخر. فمن اللباس الذي راح يهتم به إلى بعض الأثاث الذي اشتراه، إلى المروحة الجديدة إلى تغيير في طعامه، إلى الجرائد والمجلات التي امتلأت بها غرفة نومه.

كان أكثر من لاحظ هذا التغير هى «مائدة» البنت الصغرى لـ«أم علاوي»، والتي أنهت لتوها الدراسة الابتدائية ولكنها لم تواصل الدراسة المتوسطة بسبب - كما تقول - ملاحقة الشبان لها بعد خروجها من المدرسة! وهو سبب لم يقنع والدتها، التي رأت أن ابنتها قد ملت من الدراسة والامتحانات وغير ذلك.

و«مائدة» كانت هي الأجمل بين شقيقاتها اللواتي كن يَغرن منها كثيراً بسبب هذا الجمال، والشبان

الكثيرين الذين يتمنون وُدها ورضاها.

لم تعرف «مائدة» ما الذي أعجبها في «مساعد» وجذبها إليه، ولا في كيف أن قلبها العنيد راح يدق بسهولة كلما شاهدته عائداً من عمله مرهقاً، أو عائداً بالليل من المكتبة أو من المقهي.

كانت تشعر، وبدون أن تبوح بذلك لأحد بمن فيهم أمها، أن هذا النجدي الطيب المغترب هو أكثر قرباً لها من عشرات الشبان الزبيريين. ففي كل مرة تحاول أن تحادثه سواء بحضور أمها أو عندما تكون لوحدها، لايرفع هذا الشاب المثقف عينه عن الأرض، ويخاطبها بكل أدب واحترام وبذوق لايوصف.

ربما وجدت في «مساعد» رجلاً تتمناه رغم خجله الشديد، لكنها بحاجة إلى أن تعرفه أكثر مما تراه، وتخوض معه في الكلام أكثر مما تلقي عليه تحيات الصباح والمساء فحسب.

وزادت وتيرة اهتمامها بـ«مساعد» مع الوقت، ولم تعد تهتم كثيراً بأن والدتها وأختها الكبيرة «ظهيرة» لاحظتا ذلك الاهتمام الكثير للجار النجدي الشاب.

وفي أحد الأيام تهيأت لها فرصة لم تكن تخطر على البال، ففي أثناء غيابه الصباحي المعتاد في عمله بالسوق، تسلمت رسالة مرسلة إليه من عنيزة كتبها

له صديقه «يوسف». ولم يكد «مساعد» يصل بيته ظهراً حتى طرقت عليه الباب وسلمت عليه من ورائه قالت: مساعد.. اشلونك عيوني.

- أهلا.. أهلا.. مائدة.

عندما فتح الباب شاهدها لأول مرة بوضوح.. عيون واسعة عسلية وشعر أسود فاحم جميل وطويل متدلٍ ومنسدلٍ على الكتفين وأنف دقيق وابتسامة تكشف عن أسنان بيضاء، كاشفة عن جزء من نهديها المكتنزين المستديرين. إذاً هذه هي الجميلة التي قالوا عنها الكثير.. قال لنفسه وهو يُطْرِق بنظره مرة اخرى الى الارض خجلاً وحياءً.

تعمدت «مائدة» هذه المناسبة لإطالة الحديث والتمعن فيه، وتمكينه من رؤيتها عن قرب وبوضوح، واستخدمت أحد الأسلحة النسائية عندما رفعت الرسالة بالقرب من نهديها ودون أنْ تستعجل في تسليمه الرسالة، بل أعطته الفرصة مرة أخرى لكي يتمعن بها وبقوامها فيما أظهرت شفتاها عن ابتسامة رقيقة، وراحت تنظر في عينيه لأطول مدة ممكنة قبل أن تسلمه الرسالة.

قالت «مائدة»: أقِلك مساعد عيوني.. هذه رسالة أجِتك من أهلك.

وأكملت: قل لي عيني أهلك في نجد ولا في عنيزة.

ضحك «مساعد» وقال: أنا من عنيزة.. وعنيزة مدينة في نجد.

ابتسمت «مائدة»: سامحنى عيني ما أعرف بلادكم زين.

- لا.. هذي رسالة من صديقي.

- ها.. أنا حسبتها من والدتك ولا من والدك.

- أبوي توفي من زمان.. وأمي مسكينة ما تعرف تقرأ ولا تكتب.

- والله مساعد إني ما قط شفت واحد مثلك مثقف فهمان.

- الله يسلمك ويخليك.

- زين عيني مساعد.. ماتريد شي مني.. خاطرك بشي.. لاتستحي قلي.. إحنا جيران ترى.

- لا والله.. الله يطول بعمرك إن شاء الله.

- خاطرك عيني.. وداعة الله.

ثم خطت بدلال وهى تلف عباءتها السوداء حول جسدها الفاتن نحو بيتها، والتفت فجأة نحوه وابتسمت وهي تدفع باب البيت.

«هذا مونصاف منك
غيبتك هالكد تطول
الناس يسألوني عنك
شرِد أجاوبهم وأقول
قليبي لا تظن منه يشفي
والألم عنه يزول».

كانت«مائدة» مستلقية على سريرها وهي تسمع أغنية المطربة «سليمة مراد» وتدندن معها «الناس يسألوني عنك».. «شرِد أجاوبهم وأقول».

فعلا كانت محتارة في ما تقول حتى لأهلها عن حبها لجارها الشاب النجدي «مساعد»، فهو ليس من

بلدها ولا من ثوبها ولايتحدث مثلهم حتى، ولكن كل شيء به جميل.

عندما ينتصف الليل وتستعد والدتها للنوم وأخواتها الأكبر كذلك، تأخذ هي آلة الفونغراف الساحرة وتضع عليها اسطوانات «سليمة مراد» و«عفيفة اسكندر» و«محمد القبنجي» و«وحيدة خليل» و«ناظم الغزالي» وغيرهم، وتسمع أغاني الحب التي يغنونها ويخالجها شعور بأن الدنيا لاتسعها بتدفق مشاعرها ودقات قلبها مع ألحان وكلمات تلك الأغاني.

فالليل هو وقتها الجميل مع الأغاني ومع «مساعد» الذي يطول انتظاره ولايعود أحياناً إلا متأخراً.

وتتسلى بتلك الأغاني طوال غيابه عن بيته، ولاترتاح إلا عندما تسمعه يفتح الباب ويدخل، وتشعر في تلك اللحظة أن مهمتها قد انتهت، وأن قلبها ارتاح من القلق عليه.

تعود في كل مرة وتردد أغنية «سليمة مراد» وتغني مع نفسها: «شرِد أجاوبهم وأقول».

في داخل قلبها سكن الحب واستقر وكمُنَ صامتاً، أما ماذا سوف تقول فالكلام سوف يأتي في وقته.

في البيت المجاور كان «مساعد» في عالم آخر لايعير سمعه للأغاني، وإنما يتصفح الجرائد ويقرأها

ويتابع أخبار فلسطين أولاً بأول، بل ولايفوته من ذلك شيء.

وعندما أخبره صديقه «سعدون» في القهوة عن إمكانية اشتراكه في عضوية «حزب الأمة العربية»، سأله «مساعد» بسرعة: وهل هذا الحزب يهتم بفلسطين؟

رد «سعدون»: طبعا.. طبعا.. بل إنه أنشىء لمساعدة الفلسطينيين ومحاربة الصهيونية.

ارتاح «مساعد» لجواب صديقه وقال له: لِمَ لا.

دفع في تلك الليلة ربع دينار نظير اشتراكه في «حزب الامة العربية»، وهو مقتنع أو هكذا اخبره صديقه على الأقل بأن تلك النقود سوف تذهب لشراء أسلحة للمجاهدين العرب في فلسطين.

لم يستفسر «مساعد» من صديقه كثيراً عن الحزب ونشأته بل وحتى عن زعمائه ومقره وغير ذلك، فقد كان كل اهتمامه بفلسطين وعروبتها ، وأن هذا الحزب سيقوم بطرد كل اليهود من فلسطين!

وعلى عكس كل ما كان يرقبه «مساعد» ويتمناه كانت الأوضاع في فلسطين تتجه لغير أصحاب البلد، لكن الجرائد كانت تنشر الكثير من المبالغات بل والأكاذيب عن بطولات وهمية وأحياناً عن معارك

وقتل للصهاينة لم تحدث فعلاً.

بعد أسبوع واحد من انضمامه للحزب أخبره «سعدون» أن الحزب ومعه بعض الأحزاب القومية الأخرى سوف ينظمون الجمعة القادمة مظاهرة ضخمة في وسط بغداد، وأن عليه المشاركة.

استقل «مساعد» مع صديقه صبيحة يوم الجمعة إحدى الحافلات مسافرين إلى بغداد، ووصلاها ظهراً.

وفي بداية شارع السعدون الشهير شاهدا حشود من العراقيين وبعض الأكراد كانوا يستعدون باللافتات القماشية وأعلام فلسطين والعراق للسير في المظاهرة. وعند العصر حضر عدد من زعماء الأحزاب عرفهم «مساعد» من بدلاتهم الأنيقة وربطات أعناقهم «كرافتاتهم» الملونة. وانطلقت المظاهرة في الحال وراح الجميع يهتفون بصوت عال: فلسطين عربية.. فلسطين عربية.. يسقط.. يسقط الاستعمار.

وعندما طافت المظاهرة بشارع السعدون وبلغت آخره راحت تجول بهتافاتها بشوارع أخرى حتى جاءت الشرطة وفرقت الجموع بالهروات.

كانت سعادة «مساعد» بالمشاركة في المظاهرة

لاتوصف. فقد كان فرحاً جداً كما لو أنه لم يشترك في مظاهرة، وإنما يشاهد فيلماً سينمائياً أو مسرحية كوميدية.

وطوال طريق العودة كان «مساعد» يكشف لصديقه «سعدون» عن مشاعره وهو يشارك في أول مظاهرة في حياته، وكيف وجد أن الكثيرين يشاركونه المشاعر نفسها والحب نفسه لفلسطين .

كان رد «سعدون» في كل مرة هو قوله: هناك مظاهرات كثيرة قادمة.. وإن شاء الله يا مساعد ستشارك بها كلها.

ساور «مائدة» القلق عليه كثيراً ذلك أنه لم يعد إلى سكنه إلا في الواحدة صباحا. وتزاحمت الهواجس في قلبها واحتدمت كثيراً، وتناوشتها المخاوف من هذا التأخير كما لو كانت زوجته فعلاً .

في الواقع إنها في حبها إياه كانت تتصرف وكأنها زوجة له! فهي توافيه بالطعام بين يوم وآخر إذا كان متواجدا في البيت، وتقلق من تأخره في الليل، وتصحو في الصباح مبكراً لتتأكد من ذهابه إلى العمل في موعده .

ورغم التعب والإرهاق الذي بدا على «مساعد» في تلك الليلة من أثر الرحلة على بغداد والعودة منها

بعد المشاركة في المظاهرة، إلا أنه استيقظ كالمعتاد ذهب إلى عمله دون تأخير، وكانت مشاعر المشاركة بالمظاهرة ما تزال نشوتها في قلبه. ولهذا سارع بكتابة رسالة إلى صديقه «يوسف» يخبره عن تلك التجربة الجديدة المؤثرة.

فكتب: «أسعدت يا يوسف يا أيها الفلاح الوحيد المثقف. أبشرك أنني شاركت بالأمس في مظاهرة كبيرة بوسط بغداد تأييداً لفلسطين ورفضا للصهيونية. وقد شارك فيها عدد كبير من الناس، بل إنني شاهدت بعض النساء بعباءاتهن يهتفن معنا وكأنهن رجال.

أسألك يا يوسف.. أبَعْدَ تلك المعاناة بل والمأساة في فلسطين.. ألم تتحرك عنيزة وتصرخ ضد الصهيونية؟ هل حدثت في المدينة مظاهرة ولو صغيرة؟».

كانت مشاعر «مساعد» فياضة وحماسية وأكثر من أنْ تهدأ ولو لبعض الوقت. فمع استمرار المظاهرات الغاضبة في العراق وخاصة في بغداد والبصرة لم يتأخر عن المشاركة في معظمها، بل ووصل به الحماس إلى درجة أن يتبرع بالكثير من نقوده القليلة للصناديق التي فتحت من قِبَل بعض الأحزاب

القومية لمساعدة المجاهدين وشراء الأسلحة وغير ذلك كما كانت الأحزاب تقول لأعضائها وللناس.

وبلغ الأمر بـ«مساعد» إلى درجة نسيان إرسال النقود التي تعَود أن يرسلها إلى والدته وإخوته في عنيزة لهم، وقام وتبرع بها لفلسطين! وهو الموضوع الذي كان «يوسف» ينتقده عليه كثيراً.

وربما كانت هذه من القضايا التي لم تكن «مائدة» تعرفها عن حبيبها على الاطلاق.

وفي الليل وعندما يعم الهدوء والسكينة كل شيء يغرق «مساعد» في جرائده مقبلاً على قراءة المقالات الملتهبة في جرائد مثل «الأهالي» و«العالم العربي» و«الناس» وغيرها، بينما تجلس «مائدة» على سريرها الدافئ والمعطر في البيت المجاور تسمع أغاني الحب وتنثر في الليل لوعاتها على الحبيب الذي لايدرى شيئاً عن حبها.

ولاتلبث أنْ تضع أغنية مطربتها المفضلة «سليمة مراد» التي تغني فيها:

«قلبك صخر جلمود
ما حن علَيه
قولوا له قولوا له ما أبي
ما أدري بعد يا روح منهو

اللي يسلي
من بعد عين الولِف
قولوا له».

لكن لا أحد يسمع المطربة غيرها، ولا هي تقوى أن تبوح وتعلن لـ«مساعد» عن حبها له!

في مجلس «الشبلاوي» بعنيزة كان الحديث المسيطر على الجميع هو رجل اسمه «عبدالرحمن المَثال» وهو من أهل الرياض، وإنه أخبر الكثير من التجار والأهالي عن أنه موفد من تجار عنيزة في البحرين. ويقول إنهم أوفدوه لجلب بعض الشباب للعمل في مكاتبهم ودكاكينهم في سوق المنامة.

وتفاصيل الأحاديث عن «المَثال» تقول إنه جاء قبل يومين ويقيم في منزل أحد أقاربه، وإنه يحاول أن يقنع بعض الشباب بالهجرة إلى البحرين لحاجة تجار نجد عموماً إلى عمال وموظفين.

لم يكن من في المجلس بمن فيهم الشيبان والكبار

والشبان يعرفون شيئاً عن هذا الرجل الذي جاءهم فجأة. حتى الرجل الذي أقام في ضيافته ويقال إنه من أقاربه ليس من أهل عنيزة، بل من قرية قريبة منها.

الأهم من كل ذلك أن الرجل دعا في بعض المجالس، لكنه تحاشى مجلس «الشبلاوي» لسبب مجهول، دعا الشباب وخاصة المتعلمين أو الذين يقرأون ويكتبون إلى السفر سريعاً مقابل دفع بعض المال.

أما كيف سيذهب هؤلاء وما الطريقة وكم هي مدة بقائهم هناك وكم سيدفعون للسفر بالضبط؟ فهذا ما لم يتحدث عنه الرجل بعد.

في أحد عصاري جلسات رمال «النفود» وبينما كان «يوسف» جالساً مع أصحابه سلم عليه رجل طويل ذو لحية بيضاء وقال له: اسمحوا لي على المقاطعة، ولكن من فيكم «يوسف»؟

جاءه الرد سريعا: أنا يوسف.. ومن حضرتك؟

- أنا عبدالرحمن المَثال.

سلم الرجل على الجميع، ثم انتحى بـ«يوسف» للحديث على انفراد.

وأثناء المشي على الرمال قال المثال: لابد انك سمعت عني وعن غرضي من زيارة عنيزة؟ لقد سمعت عنك

كثيرا يا وليدي، وأريدك أن تسمع اقتراحي للنهاية ثم تفكر فيه.

رد «يوسف»: تفضل.

قال المثال: تجار نجد في البحرين محتاجون جداً إلى شباب متعلم مثلك يعملون معهم، وقد قالوا لي إنكم سوف تحصلون على معاشات ممتازة وسكن في مضافاتهم في بيوتهم الكبيرة.

- ولكن أنت تعرف أننى فلاح ولم أعمل في محل تجاري من قبل. والأهم أننى لا أميل إلى الهجرة.

- الموضوع ليس بالصعوبة التي تتصورها، فيمكنك الذهاب إلى البحرين وإذا لم يعجبك الوضع إرجع في نفس الشهر اذا احببت. الشغل ما فيه غصب يا وليدي.

- طيب.. وكيفيه الذهاب؟

- نذهب في سيارات إلى الرياض، ومن هناك ننتظر شاحنة تذهب إلى الإحساء، ثم نركب قارب من الخبر إلى المنامة.

- وكم تريد تكلفة مقابل ذلك؟

- انا لا أريد لنفسي.. أنا أريد تكاليف الرحلة فقط.. ٤ ريال فضة بس!

- والرواتب هناك هل هي جيدة؟

- لن يقل راتبك عن خمسة أو ستة ريالات فضة.. من خمسين روبية هندية وأنت طالع.

ختم «يوسف» حديثه مع المثال بقوله: أوعدك يا عم أننى سوف أفكر في الموضوع.

أخبر «يوسف» والدته وشقيقته «جواهر» بالموضوع وقبل أن يطلب منهما رأيهما قالت الأم: فرصة لاتعوض.. رح.. ما تدرى ويش الخيره.. هذا رزق جالك.. ومثل ما قالك الرجال جرب وإذا ما عجبك، بيتك وأهلك موجودين، وحتى صاحب المزرعة «المشيقر» ما بيخالف.. بالعكس بيفرحلك كثّير.. أنا يا وليدي أشوف إنك كبرت والله مختار لك هذا الأمر علشان يرزقك ويسعدك. يالله قم نام بس وشاور من تحب.. والصباح رباح.

حل الصباح فيما كانت عيون يوسف محمَرة بسبب السهاد والنوم القليل. وكان أول ما قام به في مزرعة «المهرانية» هو طرح الموضوع على العم «محمد المشيقر».

جاءت إجابة الرجل أكثر مما توقعت والدته، فقد قال له: شف يايوسف.. كل إنسان يدور على مصلحته.. وإِنت مثل ولدي.. وما ودي تروح عني.. ولكني بافرح إذا رحت للبحرين واشتغلت وحصلت

على عمل زين هناك. وتأكد أن مكانك وشغلك محفوظ عندي، حتى لو رجعت عقب عشرين سنة!
قبل «يوسف» رأس العم «المشيقر» وشكره، ثم دخل الحقل وراح يعمل بهمة كالمعتاد وكأنه قد نام طويلا البارحة.

وفي المساء عندما دلف «يوسف» إلى مجلس «الشبلاوي»، كان موضوع «المثال» هو محور حديث رواد المجلس.

استمع إلى كلام الرواد، ووجد أنهم جميعاً قد قالوا كلاماً طيباً عن الرجل، وأنه يريد خيراً لشباب أهل عنيزة حتى ولو أنه ليس من المدينة، لكن الأكيد أن تجار عنيزة في البحرين وجدوا فيه الكثير من الثقة والأمانة حتى يكلفوه بهذا العمل. وشجعه هذا الحديث على مشاورتهم في عرض «المثال» بالأمس، فلم يجد استغراباً من أحد، بل ترحيباً منهم جميعاً.

حتى أصدقاء النفود قالوا له: سافر يا يوسف.. ما الذي سوف تخسره في عنيزة.. سافر وشف الدنيا وارجع وقول لنا وش شفت!

لم يلق «يوسف» أحداً يقول له: لا.. إياك أن تذهب أو تسافر أو تتغرب بعيد عن أهلك. كان الجميع كباراً وصغاراً وأصدقاء وأهلاً وأقارب متحمسين جداً

لفرصة باب الرزق القادم له. وكلهم تمنوا له السفر بل شجع وألح بعضهم وحث على ذلك وبأسرع وقت، لكن «يوسف» هو الوحيد الذي لم يفصل في الأمر ولم يقرر بعد.

بعد انتهاء عمله في المزرعة في اليوم التالي قصد يوسف إلى البيت الذي يقيم فيه «المثال» شمال المدينة. وبعد السلام والتحيات سأله مباشرة:

هل عندك عمل عند تجار نجد في العراق؟ إننى أُفَضل العمل في الزبير حيث صديقي «مساعد» موجود هناك!

رد الرجل باستغراب: بصراحة لا أعرف أحداً هناك ولا أدرى إذا كانت عندهم أعمال أم لا. حالياً الأعمال في البحرين كما أخبرتك.

شكره «يوسف» ومضى في طريقه إلى البيت.

في غرفة نومه طاردته الهواجس والقلق من الهجرة

طبعاً. شعر في البداية أن المشاورات التي أجراها مع أهله وأصدقائه ورواد المجالس هونت عليه الموضوع كثيراً، ولكنه الآن وبعد أن عَلِم جميع التفاصيل عن الرحلة والعمل والمكان، صار قلقه أكثر وراح يحدث نفسه قائلا: فمثلا كيف أترك والدتي لوحدها في البيت لا جليس معها ولا أنيس؟ خاصة بعد زواج اختى وذهابها إلى بيت زوجها. ثم كيف أهاجر وأنا الذي ظللت طوال عمري أحلف بأغلظ الأيمان بأنني لن أترك الفِلاحة وأن لا أترك عنيزة؟ كيف أهاجر وأنا أشد الرافضين لهجرة الشباب؟ كيف وأنا الذي لايساوم حتى على تراب النفود؟ كيف أهاجر من عنيزة وأنا الذي ادعى كل يوم وكل دقيقة أننى أكثر الناس عشقاً وحباً في هواها وفي نخيلها وأرضها وأهلها؟ هل أرتكب ذنباً أو خيانة عندما أترك مدينتي الجميلة وأهاجر عنها؟ ألن يعتبرني أهل عنيزة خائناً عندما أهاجر إلى البحرين؟

لو كل الناس يا يوسف هاجرت من عنيزة وساحت في أراضي الدنيا كلها بحثاً عن الرزق والتعليم والتجارة وغير ذلك.. لو كلهم فعلوا ذلك يجب أن تبقي أنت الوحيد الذي لايرتكب هذه الحماقة وهذه الخيانة العظمي! لو كلهم فعلوا ذلك، لاتفعلها أنت. فأنت

الوحيد الذي تعشق عنيزة أكثر من الجميع، وأنت الوحيد الذي تطمئن لك المدينة، وأنت الوحيد الذي تنام عنيزة وهي مطمئنة إلى أنك نائم في أحد بيوتها.

وواصل «يوسف» حديثه الحزين مع النفس، ووجد الراحة الكبيرة في إطلاق كل آهاته ونفْث كل خبايا قلبه، وأكمل حديثه لنفسه:

ألا تعرف يا يوسف أنك الوحيد الذي تشعر عنيزة بأنك فلاحُها الطيب، ومثقفها الجميل وعاشقها الرائع؟ ألا تعرف ذلك؟ ألا تشعر أنك الوحيد الذي يطرد الهواجس والقلق عن كل من يفكر في ترك الأرض والسفر ويقنعه بالبقاء؟ أيضاً كيف أذهب إلى مكان لا أعرف فيه أحداً، لا أقارب ولا أهل ولا أصدقاء؟ وأترك هنا كل أحبتي وأهلي وناسي؟ كيف سأعيش هناك؟ في أي بيت؟ أين هو عملي؟ كيف سأقضى أيامي في الغربة وحيداً؟

ورغم تلك الآهات وسيل الهواجس وتوارُد القلق، إلا أن «يوسف» راح في المقابل يعطي نفسه الحق مساحة من التأمل في شأن الهجرة. وفي الواقع إنها عملية موازنة وترجيح أسباب معقولة لإمكانية الموافقة على الهجرة إلى البحرين. وراح يحدث نفسه بهدوء هذه المرة وبعقلانية أكثر:

لقد سمعت الكثير عن تلك الجزر وسمعت الكثير من المديح لها ولأهلها ورقيها وثقافتها. بل إننى التقيت بالكثير من أهل عنيزة الذين زاروا تلك البلاد والذين عملوا فيها سنوات عدة، وكلهم قالوا لي كلاماً طيباً بل وجميلاً عنها وخاصة في مسألة التحضر والنظام والتعليم والثقافة وغير ذلك .

كما لا أنسى موضوع الرزق الذي أنا في أشد الحاجة إليه في الوقت الحاضر. فهذا الإغراء المادي يشكل دعماً كبيراً للموافقة خاصة وأننى سوف أحصل على راتب أكثر خمس مرات من الذي أحصل عليه حالياً.

علاوة على ذلك فموافقة الوالدة وحماس الأهل جميعا والأصدقاء وتشجيعهم، وطلبهم بل وإلحاحهم على استغلال هذه الفرصة الثمينة و«الرزق الذي جاء من الله»، وعدم تفويت ذلك.

كما أن التهوين الذي لقيته من «المثال» من أننى يمكن أن أرجع إلى عنيزة في أي وقت أراحنى كثيراً وهون علي الخوف والرهبة وربما الرعب من الهجرة. إننى أحس أن هجرتي إلى البحرين ستعتمد علي أنا في المقام الأول والأخير، ولن تعتمد على الآخرين.

كما أن ذهابي إلى البحرين سيعطيني الفرصة لكي

أرى الدنيا وأفهمها أكثر من جرائد ومجلات مجلس الشبلاوي. فيمكن مثلاً أن أتعلم اللغة الإنكليزية كما فعل «مساعد» في الزبير، وبعدها أشتغل في وظيفة محترمة مثلما فعل هو. ولا أُغفِل موضوعاً مهماً هو قرب البحرين الجغرافي وعدم بعدها الكثير عن عنيزة، علاوة على وجود الكثير من النجديين هناك.

في الجرْدة النهائية بين الهواجس والعقلانية وجد نفسه أقرب إلى الموافقة على السفر من الإعراض عنه والبقاء في عنيزة.

عند المساء تحدث «يوسف» مع والدته عن الهواجس الأخرى التي لايعرف لها أجوبة. فمثلا سأل والدته: طيب إذا سافرت يا يمه.. ما بِتِسْتُوحِشِين بالبيت لوحدك.

فهمت الأم مغزى السؤال وقالت بثقة: والله يا وليدي.. أنا طول عمرى ما أنا عايشه لوحدي.. عندي بنيتي الله يخليها.. وعندي هالجيران الطيبين اللي ما يقصرون علي.

- لكن اختى ما بتكون عندك .

- أخليها تسَير عليّ كل يوم.. لاتحمل هم.. أنت بس توكل على الله وكل شي يصير خير.

- أكيد.. والا إنتِ بس تبغين تفتكين مني؟

ابتسمت الأم وقالت: كان سفرتك من زمان.

- طيب.. ومن وين نجيب الريالات التي طلبها هالرجال.

- ندبرها.

- كيف؟

- أقول لأختك تاخذ من رجلها بدون ما تقوله عن شي. وعندنا الكثير من التمر بالبيت نبيعه بالسوق.. لايهمك أنت بس.

- وش تبين تاكلين أنتِ بعدين إذا بعنا التمر. وش عندك انتِ غير التمر؟

- وأنت تحسبنا بنموت جوع.. أنت تعرفني زين.. شويه تميرات تعيشنى والحمدلله.

- والله ما أدرى وش أقول.

- قول اتوكلت على الله وبس ولاتفكر بشي.

قال «يوسف» بتردد: توكلت على الله. ثم صمت لفترة من الوقت.

كان حديث والدته وحماسها وتشجيعها والأهم تدبيرها لموضوع سفره هو الحسم الذي وجده مريحاً وعادلاً أيضا.

قبل يومين من الموعد النهائي للتفكير الذي أعطاه إياه «المثال» أخبره «يوسف» بالموافقة.

في سوق مدينة «بريدة» القريبة جداً من عنيزة ومنذ الصباح الباكر جاء «مُصَوت» من الرياض يعرفه أهل بريدة وعنيزة كلهم، على أنه مبعوث الحكومة لنشر إعلاناتها بين الناس.

وعندما شعر «المصوت» بأن السوق قد اكتظ بالناس وقف على أحد المُصْطَبات «الدكات» وراح يصرخ: «الريال السعودي عملة.. والريال الفرنسي سلعة».

وانتبه «يوسف» إلى صراخ المصوت ووقف مثل بقية الناس يستمع إليه «الريال السعودي عملة.. والريال الفرنسي « ماري تريزا» سلعة.. فليُعلم».

كان «يوسف» متواجداً في سوق بريدة منذ فترة

طويلة بانتظار أن يفتح مكتب الهجرة بابه لاستخراج وثيقة سفر له.

في الثامنة صباحاً بالضبط وصل موظف كبير في السن ومعه شنطة صغيرة، وقام وفتح باب دكان الهجرة ودخل، ولم تمض دقائق قليلة حتى فتح نافذة الدكان الصغيرة واستدعي الناس.

اكشتف «يوسف» أن هناك عشرات كانوا قد سبقوه في الوصول، ووقفوا فيما يشبه الطابور على نافذة المكتب الصغير. كان هناك الكثير من طلاب الهجرة من نجد وبعضهم من عنيزة جاء لاستخراج تلك الورقة أو الوثيقة التي سوف تساعدهم في السفر إلى العراق أو البحرين أو الكويت أو الهند أو الشام أو غيرها.

كان من بين الواقفين أمهات مُتشِحات بالسواد يسعَيْن للحصول على أوراق تساعدهن على الالتحاق بأزواجهن أو أولادهن أو بعض أقاربهن في الخارج.

في ذلك المكتب الصغير كان الرجل العامل يُخرِج الأوراق الرسمية التي معه وختماً وردياً غامقاً ليختم به الأوراق ودفتراً صغيراً يسجل ما يقوم به ودفتر أرصدة للرسوم التي يتحصل عليها.

بدأ الرجل عمله بشاب من عنيزة وسأله: من أنت؟

قال: أنا ضاري بن عبدالله الرغيبي.

- وش اسم أمك؟
- أمي.. أمي اسمها مضاوي بنت أحمد الحساني .
- وين شهودك يا ضاري؟
- معي صديقي هذا وأشار إلى أحدهم.
وعندما تأكد من اسمه وبلدته وغيرها، سأله مرة أخرى:
- وين تبي تروح يا ضاري؟
- البحرين يا طويل العمر.. حصلت شغل هناك.
- والله لو تجلس هنا أبرك لك.. لكن ترى الرسوم ربع ريال عندك؟
- إيه عندي.
وقام الرجل وعبأ ورقة المرور وأعطاه إياها.
بعدها جاء رجل مسن بالكاد يستطيع الكلام قال إنه يريد زيارة ابنه في البصرة. ورفض الرجل إعطاءه أي ورقة بحجة كبره في السن!
وبعد دقائق جاء شاب وقال للموظف بكل حماس: أنا أبغي طال عمرك أسافر إلى الشام.
- وين بالشام؟
- بسوريا.
- متأكد؟
- عندي هناك صديق وقال إنه يبيني أشتغل معه.

- جيب لي إثبات عنه انه بسوريا وجيب شهودك وتعال بكره.
- طيب مشكور.
وجاء شاب آخر وقال إنه يريد الذهاب إلى كلكتا.
- وين هذي كلكتا؟
- بالهند طال عمرك.
- ليش؟
- أبي أترزق الله.
- ما لقيت إلا الهند؟!
- فيها خير كثير هناك.
- طيب عندك اثباتات وشهود؟
- عندي كل شي.
- طيب.. هات.
ويمضى الموظف في عمل الجواز ثم يسلمه بعد دقائق إلى الشاب الذي يتسلمه وهو يكاد يطير فرحاً، لكنه قبل أن يغادر المكان ينادي عليه الموظف ويقول له: لكن قبل لاتسافر لزوم تروح إلى محل الهجرة بالرياض علشان يكتبون إسمك وصفاتك كلها بالإنكليزية.. ولا ترى ما بتدخل الهند كذا!
ويرد الشاب: إن شاء الله.. إن شاء الله.
وبعد عدة طلبات وشبان ورجال ونساء يأتي دور

«يوسف».
- أبي طال عمرك ورقة أو جواز للبحرين.
- تبيها زيارة ولا عمل.
- لا، عمل.
- طيب عندك شهود.
- والله ما كنت أعرف إنكم تبون شهود وأنا جاي من عنيزة وسفري قريب وأبيك من فضلك وإحسانك إنك تساعدني.
- إنت ولد من؟
- أنا ولد عبدالرحمن الشميلان.
- وين تشتغل؟
- أشتغل فلاح عند مزرعة «محمد المشيقر».
ويرد الموظف بثقة:
- إيه.. إيه.. بس عرفته «بوناصر» والنعِم فيه.
ثم يقوم ويختم له الجواز ويملأه بالشكل التالي:
«هذا جواز صادر من حكومة المملكة العربية السعودية - محل بريدة
الاسم: يوسف
اسم الاب: عبدالرحمن الشميلان
محل التوَلد: نجد « عنيزة»
محل الاقامة: نجد « عنيزة»

القامة: طويل
العيون: سوداء
الأنف: عادي
الفم: عادي
الشاربان: سود
اللحية: سوداء
الوجه: بيضاوي
الشعر: أسود
العلامة الفارقة: شامة إلى جانب الأنف الأيسر
الحرفة أو المهنة: فلاح
محل سفره: البحرين
بصمة صاحبها: ـــــ
الصورة: لايوجد مصور في عنيزة
صدر هذا الجواز بتاريخ: ٢ ربيع الثاني ١٣٦٣هـ، الموافق ٢٨ مارس ١٩٤٤م».
أمسك يوسف بالجواز أو الورقة الثمينة بيده بعد أن شكر الموظف على ثقته، ومضى سائراً تحت شمس الربيع يبحث عن شاحنة إلى عنيزة.
كان الفرح يملأ عيونه قبل قلبه، والسعادة تنتفض في جسده، وكأنه يبدو وكأنه عصفور يتدرب على الطيران لأول مرة.

في صباح يوم ربيعي من نهاية شهر مارس ١٩٤٤ كانت شاحنة كبيرة « لوري» متوقفة قرب مزرعة «المهرانية» التي يعمل فيها يوسف، وكان سائقها ينتظر وصول مسافرين ومعهم حقائبهم وأمتعتهم لإيصالهم إلى الرياض.

نهض «يوسف» متأخراً على غير عادته بسبب قلق الهجرة الذي صار يلازمه في الايام الاخيرة، لكن والدته كان قد جهزت كل مستلزمات السفر ومن أهمها حقيبة صغيرة بها أمتعته وحوائجه إضافة إلى مبلغ من المال، فقد باعت الكثير من تمر البيت في السوق وحصلت على مبلغ جيد من النقود، كما

أعطتها «جواهر» بعض الريالات الفرنسية. وبذلك أمكن لهم تجميع المبلغ الذي يحتاجه «يوسف» لرحلة البحرين الطويلة.

بعد العناق الحار مع والدته وشقيقته اللتين لم يتوقف انهمار الدموع من عينيهما، استطاع «يوسف» بصعوبة أن ينتزع نفسه من حضن أمه التي استمرت تبكيه بحرقة.

وبعدما ودعهما وخرج من البيت، وجد جمعاً من أصدقائه وأصحابه مثل أولاد الشبلاوي وغيرهم وقد توافدوا لتوديعه. وفي طريق الوداع كان الاصدقاء يوصونه بموافاتهم بالمكاتيب والإكثار منها، والتطرق إلى وصف البحرين، والحديث عن السينما فيها التي سمعوا عنها الكثير. وقال له أحدهم: وإذا شفت إنْ البحرين مزيونه.. اكتب لنا يا خوي نِجيٍّ عندك!

كانت خواطر الجميع متنوعة، لكن تحَسرهم على فراق «يوسف» كان الشاغل الوحيد الذي كان يجمعهم.

وكان أحد اصدقائه الذي أصر على حمل حقيبة «يوسف» على كتفه طوال الطريق، إلا أنه لم يوصه على شيء سوى الاهتمام بنفسه والابتعاد عن كل شيء يسئ إلى اهل عنيزة وسمعتهم الممتازة. وقال

له: وانت تعرف يا خوي إننا معروفين بالجود والكرم والنباهة، لكن بعضهم الله يهديهم لِيْن سافروا يقومون بأشياء شينة. وانا أعرف إنك مِتْنْ منهم، ولكن آحَرْصِك زيادة.

وعندما وصلوا أخيرا إلى موقع توقف الشاحنة الكبيرة «اللوري» كان حشد من الشباب بانتظارهم، وعدد كبير منهم لم يكن أحد وخاصة «يوسف» يتوقعهم. فقد كان مجموع الشباب الذين سوف يسافرون يقاربون العشرين شاباً وكلهم طبعا صرفوا دم قلبهم لهذه الرحلة.

وهناك أعطاهم «المَثال» تعليمات الرحلة، ثم شحنت أغراضهم وحقائبهم وركبوا الشاحنة. جلس بعضهم فيما فضَل بعضهم الوقوف. وعندما سمعوا صوت تشغيل محركات الشاحنة، خفقت قلوبهم نحو عنيزة وراحوا يلوحون بأياديهم صوب أصدقائهم وأهليهم بالوداع الحار، وراحت تتعالي أصوات المودعين: في أمان الله.. في أمان الله.. تحملوا بأنفسكم.. الله يحفظكم.

ومع غبار الشاحنة المتصاعد وتواريها عن الأنظار انتهى الوداع القصير، وتفرق المودعون كل إلى حال سبيله.

في الطريق الوعر إلى الرياض لم يكن أمام «يوسف» وصحبته من الشباب المسافرين سوى تبادل الحكايات وأهمها بالطبع ما عانوه وواجهوه من صعوبة حتى استطاعوا تدبير مبالغ المال للرحلة ودفعها إلى «المَثال».

فقد روى أحدهم أن أمه باعت ذهبها كله ولم تُبْقِ منه شيئاً، بل واضطُرت إلى الاستدانة لتكملة المبلغ المطلوب. وقال آخر إن والده اضطُر إلى رهن البيت الذي يملكه لدى أحد التجار لكي يتمكن هو من السفر. وروى ثالث كيف اضطُروا لبيع تمرهم كله والكثير من أثاث المنزل من أجل الغربة في البحرين. كانت حكايات الفقر والمعاناة أكبر من أن تستوعبها الشاحنة الكبيرة، حتى عندما وصلوا بعد ساعات طويلة إلى مدينة «شقرا» حيث نزلوا للاستراحة وارتشاف الشاي.

كان أول ما بادر إليه الشباب المسافرون هو غسل وجوههم ونفض الغبار الكثيف الذي انهال وتراكم على أجسامهم الضعيفة طوال الطريق الوعر والرحلة المضنية في أولها. وفي استراحة المدينة كان التعب والإرهاق الشديد باديان عليهم بوضوح، وخاصة على وجوههم وعلى ظهورهم. فلم يكن

الطريق وعراً فحسب بل كان السير فيه يشبه تسلق الجبال حيث الصخور والرمال والشجيرات والأنكى توقف السيارة بين حين وآخر وغرقها في الرمال بين كل مرحلة من الطريق وأخرى.

ولعل الطريق الوعر بين عنيزة والرياض هو الذي عجل كثيراً بنهاية كل الحكايات عن المدينة وأحوال كل شخص وأوضاع أهاليهم وسواليف أهل المدينة وحتى ضحكات الناس التي لاتنقطع.

في استراحة «مرات» لم يعرف الشباب ماذا يفعلون بعد أن نفضوا الغبار عن وجوههم وأجسادهم وثيابهم المتسخة. فهناك أمكنة للنوم لكن أي نوم سيأتي وقد غادروا عنيزة الحبيبة على قلوبهم.

ودع الشباب بعضهم بعضاً للنوم القصير، فقد كان عليهم النوم لعدة ساعات والاستيقاظ في الرابعة فجراً واستئناف الرحلة.

وحده «يوسف» لم يودع أحداً، فقد راح يطالع النجوم في السماء الصافية وراح يتأمل في الليل وظلمته الحالكة. كان النوم عنده هو أبعد من كل شيء، بعيد كأنه عنيزة، وبعيد كأنه «مساعد» في الزبير، وبعيد أيضاً وكأنه مكان لم يصل إليه بعد.

في تلك الليلة بدت الدنيا صغيرة جداً في عيون

«يوسف». بدت كأنها عنيزة والصحراء والطريق إلى الرياض. بل لم تكن سواليف «المَثال» صاحب الرحلة ومقاولها مع سائق الشاحنة يعني له شيئاً.

كان السائق يروي للمَثال تجربته المريرة والصعبة في الرحلات بين مدن الجزيرة العربية وخاصة بين مدن نجد الوعرة. وكان «المَثال» الذي يبدو وكأنه تعود على تلك الأحاديث سعيداً بها وكأنه يسمعها لأول مرة في حياته.

ورغم استمتاع «يوسف» بتأملاته مع الظلام والليل إلا أنه لم يمانع من الثرثرة، وخاصة من السائق «نشمي» والإجابة على بعض أسئلته. فمثلاً وبعد حديث طويل مع صاحب الرحلة «المثَال» يسأل «نشمي» «يوسف»: هذه أول مرة تسافر باللوري؟

فيرد «يوسف» في الحال: نعم.. وإن شاء الله تكون آخر مرة.

ويضحك السائق و«المَثال» و«يوسف» معهما.

ويستأنف السائق الحديث: تراك إنت مبسوط باللوري.. أجدادك وأُبُوتك سافروا من قبلك بالجمال.. وتعبوا كثير بالحيل.. هون عليك بس.

ويرد «يوسف»: والله إني ما توقعت إنْ السفر باللوري يِتعب كذا. وإنت ما شاء الله عليك تسرع بالحيل

كانك راكب خيل وتسابق به بعد.
قال «المَثال»: ترى يا «يوسف» لو« نشمي» ما فعل كذا كنا ما وصلنا «شقرا» إلا بعد عشرين يوم.
تدخل السائق وقال: ترى «المثال» صادق. لكن أبي أسألك إنت شفت الرياض من قبل؟
أجاب «يوسف» وهو يرتشف فنجان الشاي الأخير ربما: لا.. ياعم ولكن سمعت عنها الكثير.
- لا، ترى السمع ما يفيد بالسفر. خذ كلامي وانا أبوك. في السفر لازم تشوف بنفسك وتطالع ولاتخلي أحد يقولك شي. أنا سافرت كثير ما خليت مكان ما رحت له.. لكنى سامحني ما خليت أحد يدِلني على مكان ولا يعرفني على شي. إذا تسافر خذها منى نصيحة اعرف كل شي بنفسك.. ورح سو اللي تبيه بنفسك. في السفر إنت السيد والأمير بعد.. ومحد له شغل معاك.
قال «يوسف»: والله كلامك ياعم به حكم.
فرد السائق: في السفر يا وليدي وخاصة في أسفارنا المتعبة ما في شي به حكم.. كل شى نسميه تجارب.. والتجارب مثل ما تعرف أفضل بكثير من الحكم.. فحين تجرب تستغني عن الحكمة.. ولين تمشي في الرمل وتتورط تدرى وش تتذكر؟

- وشو..
- ما تتذكر الكلام اللي أحد قاله لك من قبل ولا حديث سمعته من شيخ دين ولا من حكيم في مجلس.. لكن تتذكر وش سويت في مشكلة مرت عليك من قبل.. كيف تصرفت وكيف كافحت ووصلت.
تدخل «المَثال» في الحديث وقال موجهاً كلامه لـ«يوسف»: رغم إني سافرت مع أبو محمد قليل، إلا إني تعلمت منه أشياء كثيرة، وأنا ما عملت ولا شي لأني ما عرف الطريق ولا السياقة!
ضحك الجميع واكمل «المَثال»: لكن علمني الصبر وهذا أهم شي. وتحمل الغبار.. وقال لي مرة إذا ما عرفت تتعامل مع الغبار فأنت ما تصلح بالمرة للسفر على الإطلاق. ومن يومها وأنا أعرف أبلع الغبار وكأني أشم وردة حمرا.
قال السائق لـ«يوسف»: ما ودك تنام؟ والا إنت مثلنا ما تنام إلا عندما نوصل بالسلامة!
- والله شكلي ما فيني نوم.. وإبريق الشاي قدامي والنار مشتعلة ما انطفت آقدر أسخنه كل ما بغيت.
قال «المَثال» لـ«يوسف»: لكني ودي أسألك.. هل إنت مبسوط والا حزين مثل ما أشوفك لانك رايح

البحرين؟

رد «يوسف»: إنت تسأل وكأنك تجاوب.. إنت تشوفني قدامك من أكثر من أربع وعشرين ساعة، لايظهر الانبساط على وجهي ولا شي.. لكنى رايح أجَرب.

- عجل مثل ما قال «نشمي» إنك رايح تجرب!

- موهوب اللي إنت قلت لي كذا؟

- صحيح .. ولكن..

- ولكن وشو يا رجال.

- الجماعة اللي معاك كلهم تعبانين واجد.. ورايحين على البحرين وهم ما يعرفون شي عن البلد.

- مش إنت اللي قلت لهم عن البلد.

- صحيح.. ولكني ما خدعتهم.. أنا كان همي يروح اللي متعلمين واللي يقرون ويكتبون.. لكن مثل ما إنت شايف أكثر اللي جَو معنا ما يعرفون يقرون ويكتبون.. والصراحة إنّ بعضهم دِبَش.. ما يعرفون كيف يدبرون أمورهم البسيطة.. الله يستر بس.

- إنت اللي عليك سويته.. والباقي عليهم وكل واحد يتحمل مسئوليته.

- لكني خايف يا «يوسف» إنهم بكره يحطون اللوم عليّ ويقولون إنّ «المَثَال» هوّ السبب.. هوّ الذي خلانا نروح البحرين واحنا ما نعرف شي.

- لكن كلهم يعرفون هذا الشي.. إنت قلت للناس كلهم في عنيزة إنّ تجار نجد بالبحرين يبون شباب متعلمين.. واللي جاووك بعضهم متعلمين.. فما لك ذنب.

- أقول بصراحة يا «يوسف» ولاتزعل منى.. أنا هذا الكلام اللي قالوا لي تجار نجد بالبحرين إنهم محتاجين متعلمين من عنيزة.. وبصراحة أكثر أعطوني مبلغ من المال عمولة للناس الذين سوف أحضرهم.. وقالوا لي سوف نعطيك بعد أكثر اذا جبت لنا أناس كويسين ومتعلمين وفاهمين بعد في التجارة.

عند الثالثة صباحا تقريباً توقفت تلك السواليف، وكان الثلاثة قد راحوا في التثاؤب، فأوى كل واحد منهم إلى فراش السفر البسيط للنوم ساعة قد ينام فيها أو قد يسهد.

في الفجر استيقظ الجميع وركبوا الشاحنة فمضت بسرعة البرق وعاد الغبار يملأ الأنوف والحلوق والعيون.

وبعد ساعات طويلة وصلوا إلى استراحة «نفود السر» حيث راحوا يتناولون بعض الطعام ويحتسون الشاي والقهوة ويتزودون بمياه الشرب.

ولم تمض أكثر من ساعة حتى صاح السائق: ياالله يا جماعة.. ترى ما بقي شئ على الرياض.. باقي عليكم بس الصبر.

وفي الحال ركبوا مرة أخرى بعد وقت طويل قضوه في نفض الغبار عن أجسادهم وثيابهم، وكذلك أداء الصلوات جمعاً وقصراً.

مع منتصف الليل وصلوا إلى الرياض بعد رحلة شاقة استمرت يومين تخللتها بعض الاستراحات الصغيرة هنا وهناك.

كان في انتظارهم بيت قديم ولكنه كبير للإقامة في شمال الرياض استأجره «المَثال» لشباب عنيزة. بدا البيت وكأنه خان قديم، حيث كانت الغرفة الكبيرة الأولي تتسع لنوم أكثر من ثلاثين شخصاً على الأقل، والغرفة الثانية كانت تتسع لعشرين أو أكثر قليلاً، بينما كان الحوش الكبير يتوسط الغرفتين الكبيرتين.

وبعد نوم ليلة استيقظوا في الصباح الباكر وقصدوا سوق الرياض، وهناك شاهدوا شاحنة كبيرة «لوري» أخرى وهي التي ستقلهم إلى الإحساء. وفهموا من سائقها أن تحركها للسفر يعتمد على امتلاء الشاحنة بالركاب بالكامل وأن عددهم لايكفي

لذلك، أي إنه مضطر للانتظار يومين أو أكثر كي تمتلىء ثم يُعلِم الجميع بالسفر. لذا فقد قضى «يوسف» وزملاؤه أوقاتهم في التسكع بالسوق طوال أيام انتظار اكتمال امتلاء الشاحنة.

وفي هذه الأثناء جَد أمر تسبب في تعقيد وضعهم، فقد عرف «يوسف» وبعض من معه من الشباب في السكن أن خمسة من الشباب رجعوا إلى عنيزة. وعندما سأل «يوسف» صاحب الحملة «المثال» عن السبب قال:

- جاءوني في الصباح الباكر.. وقالوا لي إنهم عَدَلوا عن فكرة السفر، وإن شوقهم لعنيزة ولأهلهم هناك صار عندهم أقوى من كل شيء. وكذلك فإنهم بحاجة إلى نقودهم.

وأكمل: لم أجادلهم كثيراً في رأيهم.. وأعطيتهم نقودهم مخصوماً منها أجرة السفر من عنيزة إلى الرياض.

- ولكنهم لم يخبروننا بشيء عن ذلك؟

- هم قالوا لي إنهم لا يرغبون في التأثير على الآخرين فيعود أكثركم معهم.

- لكنهم قبلوا شروطك من قبل وكانوا متحمسين أكثر منا للهجرة إلى البحرين. سبحان مغير الأحوال.

- أنت يا يوسف لاتعرف معنى الهجرة. هؤلاء قلوبهم ضعيفة ومرهفة جداً. لقد حنوا إلى بلادهم وأهلهم، وخافوا أن يضيع منهم كل شيء. هؤلاء الشباب وخاصة من لايجيدون القراءة والكتابة لاتوجد عندهم أحلام أو أمنيات مثلك ومثل غيرك من المتعلمين. إنهم لايفكرون سوى بلقمة عيشهم وكرامتهم وبقائهم في مدينتهم. لايرغبون سوى بالستر. هذا هو كل مايريدون من الحياة.

- والله أنا خايف يا عم أن البقية تصيبهم العدوى ويرجعون بعد.

- على كيفهم.. حِنا قلنا لهم كل شيء وشرحنا لهم بعَد. وأكدنا لهم إنهم أذا بغوا يرجعون فالرجعة ترى أسهل من الروحة!

ذهب «يوسف» الى سائق الشاحنة وسأله عن موعد السفر، فهز الرجل رأسه وقال له: العدد للحين قليل.. وهالمرة لزوم به تأخير!

عاد إلى البيت الذي يقيمون به في الليل وسأل عن بعض الشباب فقالوا له إنهم بالسوق.

في صباح اليوم التالي اكتشف أنهم رجعوا إلى عنيزة، وهكذا انخفض العدد من عشرين شاباً إلى اثني عشر، كما عرف من «المثال» أيضاً انهم أبدوا له

نفس الأسباب للعودة الى عنيزة.

وبعد أن تناقص عددهم إلى تسعة شبان فقط، قال «المثال» لـ«يوسف» وهو غاضب من الشباب الذين لم يصبروا، وانحازوا للرجوع إلى عنيزة، قال:

والله يا يوسف ما أعرف ويش السحر اللي بعنيزة هذي حتى يرجعون علشانها.. أليسوا هم فقراء ومحتاجين إلى عمل ونقود لإرسالها إلى أهلهم.. ألم يبيعوا كل شيء من أجل هذه الهجرة؟ إذاً ما سحر عنيزة؟ قل لي بربك كي افهم.

رد «يوسف»: مثلما ما أنت تحب الرياض ديرتك هم بعد يحبون عنيزة ويحفظونها بقلوبهم.. عنيزة ساحرة لأنها تحب ناسها وتخلص لهم.. هى مدينة عجيبة تسحر حتى الذي يزورها.

قال «المثال»: طيب.. كل المدن كذا وِشْبِها من زود هيّ؟

رد «يوسف»: الزود إنها متسامحة وتحب الغريب مثل القريب وتعطي الناس كل خيرها وما تتأخر عليهم بشي. وما تنسى إنْ ناسها محبوبين وطيبين ولطفاء وكرماء وبهم شهامة.

قال «المثال»: بعَد كل هذا يمكن تلاقيه في أغلب المدن وخاصة بالجزيرة العربية.. لكنك ما جاوبتني عن

سحر عنيزة خصوصاً.
وعندما عجز «يوسف» عن إقناع «المثال» بخصوصية مدينته قال بثقة:
- السحر بها.. إسأل عنيزة نفسها يمكن تلاقي الجواب.
ضحك «المثال» وقال: الله إيعيني عليكم يا أهل عنيزة.. عسى بس ما تسحروني واتخلوني أجلس عندكم.
ضحك «يوسف» وقال: لا.. جلستك عندنا خلها عاد عقب ما أرجع من البحرين.

بعد أسبوع من انتظار امتلاء الشاحنة الكبيرة بالمسافرين إلى الإحساء جاء الخبر اليقين من سائق الشاحنة «محمد طرقي» إلى شباب عنيزة بأن يستعدوا في الصباح الباكر للسفر.
لم يكن أمام «يوسف» وبقية الشبان الثمانية الذين تبقوا من مجموع الشباب العشرين، أن يقوموا بأية استعدادات، فكل ما عندهم هو حقيبة يد صغيرة بها بعض الثياب فقط. وقبل الموعد المحدد بساعة كانوا متواجدين في موقف الشاحنات وسط الرياض ومعهم حقائبهم الصغيرة. وفي الموقف نفسه كانت هناك شاحنات قد امتلأت لتوها بركاب قاصدين

مكة وبعضهم إلى الاردن وغيرهم الى جدة.
كان «يوسف» يطالع منظر الشاحنات وهي محملة بالركاب ويظن للوهلة الأولي أن أحداً لن يبقي في الرياض!
وبعد أحاديث مملة تبادلها مع الشبان وصل السائق أخيراً ومعه «المثال». قبل ركوبهم الشاحنة قام السائق بتهيئة قسم منها للنساء ووضع ستارة لهن ولأطفالهن كي لايظهروا أمام الرجال. وعندما تأكد السائق أن الأغطية التي وضعها عليها مُحكمة ومربوطة جيداً، نادى على الرجال بالركوب وساعدهم هو بنفسه على الصعود والارتقاء إلى سطح الشاحنة الذي لم يلبث أن يغص بالركاب.
صعد «المثال» مع السائق في مقدمة الشاحنة. وعندما تأكد من أن الجميع موجودون ولم ينس أحد أياً من حقائبه أو أغراضه، صاح على الحريم داخل الستارة الموضوعة: وانتو يالحريم ما نسيتو شي.
ردت إحداهن بحياء: لا.. اتوكل على الله .
انطلقت الشاحنة حوالي الساعة السادسة صباحا، وكانت الشمس باردة وقتها، بينما كان الجو صحواً وكانت السماء صافية تماماً.
مضت الشاحنة في طريقها البري الوعر وهي في

ارتفاع وانخفاض حسب تضاريس الطريق بينما الركاب المساكين يَعْلُون معها وينزلون، والتراب الأصفر الناعم يحيط بأجسادهم ويتراكم على ثيابهم ويتسلل إلى أنوفهم بسهولة.
في وقت العصر أوقف السائق «طرقي» الشاحنة في تلك الصحراء العارية، فنزل الجميع ماعدا النساء اللواتي انتظرن قليلاً.
عندما نزل الرجال كان أول ما فعلوه هو الانبطاح على الأرض الرملية لتليين ظهورهم وإراحة عظامهم التي أحسوا بأنها بسبب وعورة الطريق تكاد تكون تكسرت وتهشمت. بعضهم فرش ثياباً على الأرض لكي يرتاح عليها، وآخرون استلقوا وتمددوا الأرض في العراء بلا شيء. وعلى عكسهم قامت النساء وبعض أطفالهن بالمشي لدقائق، ثم أذين الصلاة خلف الشاحنة.
في تلك الاثناء قام السائق ومعه «المثال» بتحضير القهوة والشاي وبعض الطعام الجاهز.
بعد نصف ساعة ربما أو أكثر نهض المسافرون من الأرض لأداء الصلاة جماعة وكان «يوسف» هو إمامهم.
وعقب الصلاة كان الجميع بحاجة إلى المشي ولو

لفترة قصيرة، ولذلك راحوا يمشون جماعة أيضا ويطالعون شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً حيث لا شي سوى الصحراء القاحلة إلا فيما ندر من شجيرات صغيرة هنا وهناك.

وبعدما أنهوا المشي والصلاة والراحة والأكل والشرب، وقبيل المغرب بقليل، أمرهم السائق مرة أخرى بالصعود الى الشاحنة لاستئناف السير.

لا أحد يعرف وحشة الصحراء في الليل إلا سائقو الشاحنات وخاصة الذين اشتغلوا في السياقة لفترات طويلة، فهي على عكس كل شيء كلما كثرت خبرة السائق فيها زادت وحشته وخوفه منها. إنها الصحراء وليست الواحة ولا البستان. ففي الصحراء لاتسمع سوى نفسك وعواء طويل يصدر من بعيد ثم لا شيء. أما صوت الشاحنة وهي تضرب في الطريق سائرة فيوقظ الليل النائم في تلك الصحراء القاتلة!

كاد «المثال» أن يغفو بعد ساعات قليلة من انطلاق الشاحنة، لكن «طرقي» نبهه قائلاً:

- تونا بدرى يا مثال على النوم.. وراك مستعجل كذا.
- والله ما هوب النوم لكن التعب.
- حتى التعب تراك تَوك عليه.. عسى ما بك شي بس.

- لا.. لا تَفَاوِل علي.
- ترانا نبي ننام.. بس اصبر شويه خلنا نقطع مسافة زينه.
- ولايهمك.

وفعلا قطعت الشاحنة بدون مشاكل تذكر مسافة لابأس بها، حتى توقف السائق عند الساعة الواحدة صباحا، وطلب من الجميع النوم وقضاء الحاجات وغيرها، فلم يترددوا في ذلك ولم يمانعوا، وسرعان ما خلدوا إلى النوم.

وقبيل شروق الشمس استيقظ الجميع، وقاموا واغتسلوا وصلوا ثم تناولوا بعض الطعام، وركبوا الشاحنة.

انطلقت الشاحنة مجدداً في الصباح الباكر مسرعة كعادة السائق الذي لم يكن يبالي بالصخور أو بعض المرتفعات والمنخفضات، بل يمضي وكأنه يسير على طريق من حرير.

عند العاشرة صباحاً تقريباً شعر «طرقي» بأن الشاحنة لم تعد تستطيع الحراك إذ إن الرمل صار يحاصر الإطارات من الجهتين اليمني واليسري، فطلب من الجميع النزول والمساعدة.

قال «طرقي» للشبان:

- اللوري غرز يا جماعة.. يلا.. نبي فزعتكم.
وفي الحال شمر كل الرجال سواعدهم، وراحوا يحفرون ويزيحون الرمال الناعمة التي بلغت حوالي نصف الإطارات ويبعدونها. استمرت العملية بعض الوقت والسائق يحاول كل مرة تحريك الشاحنة إلى الأمام ولكن بلا فائدة لكن المحاولات استمرت. وبعد عدة محاولات وحفر عميقة ومجهود كبير استطاع في النهاية أن يسوق الشاحنة بسرعة ويحركها إلى الأمام وينفذ من مستنقع الرمال.
ركض الجميع بعد ذلك وراء الشاحنة التي توقفت بعد ثوان وركبوا فيها وهم يلهثون.
وهكذا فقد تعددت فترات الاستراحة، فمرة في النهار ومرة في الليل للنوم، والطريق يبدو وكأنه لاينتهي وما يزال طويلا. وفي الليل توقفت الشاحنة مرة أخرى وعندها صاح السائق: ترانا غرزنا ياجماعة.. لكن خلونا ننام الحين والصباح رباح.
وبالفعل نام الجميع قرب الشاحنة التي غاصت في الرمال مجددا.
ومع الشروق بدأ العمل من جديد لتحريك الشاحنة لكنهم هذه المرة انتهوا بسرعة، وانطلقوا في يومهم

الثاني إلى الإحساء، حتى وصلوها أخيرا في فترة العصر.
كانت غابات النخيل تحاصر الإحساء في كل مكان، وكان المنظر من بعيد وقبيل الوصول بدقائق يبدو في غاية الجمال والمشهد في أوج الاخضرار.
عند الوصول ذهبت النساء وأطفالهن أولاً إلى المدينة حيث مقصدهم وحيث أقاربهم ينتظرونهم بشوق. أما الشبان فذهبوا مع «المثال» والسائق «طرقي» إلى بيت الاستراحة المؤقت في الإحساء ليستعدوا للسفر بعد أيام إلى ميناء الخبر القريب من هنا.
بعد ثلاثة أيام من الاستراحة في ذلك البيت العتيق غادر الجميع المكان، وودعوا السائق، ثم وصلوا عصراً إلى الخبر حيث كانت بانتظارهم إحدى السفن الراسية.
بعد ركوب «يوسف» وشباب عنيزة إلى السفينة الصغيرة رفع النوخذةالمرساة من البحر معلنة الرحيل .
مضت السفينة الصغيرة ببطء شديد حتى حل الظلام عليهم، ولم يعد يُرى من البحر سوى أمواجه المتلاطمة تتلاعب بهم بين وقت وآخر. وهذا ما جعل

الخوف والقلق يسيطر على شباب عنيزة الذين كانوا يرتادون البحر لأول مرة بل يرونه لأول مرة، علاوة على أنهم لم يكونوا يجيدون السباحة. ومع الظلام كان الرعب قد استبد بهم. لكنهم عندما شعروا بقربهم من الجزر، كانت أنفسهم قد أخذت جرعة من الطمأنينة.

وفجأة صرخ النوخذة: طالعوا الأنوار.. إنها البحرين.

عاد «مساعد» إلى بيته في الزبير متأخراً كثيراً عن مواعيد عودته التي حفظتها جارته الجميلة «مائدة». كانت الساعة تقارب الواحدة صباحاً عندما هَم بفتح باب البيت محاولاً عدم إحداث أي صوت في هدوء الليل .

عندها سمعت «مائدة» وقع خطوات نعاله فهبت من سريرها، وهي في كامل زينتها وتبَرجها، ولبست عباءتها بسرعة وخرجت بهدوء شديد إلى بيت «مساعد».

كانت قد قررت قبل يومين ان تحسم أمرها مع هذا الشاب المصر على تجاهلها، أو الرجل الذي لايعرف

شيئاً ربما عن مشاعرها نحوه. ففي الفترة الأخيرة أحست بالتعب من هذا الحب الناقص لطرفه الآخر، وشعرت أن الوقت قد حان وأكثر من أي وقت مضى للمصارحة وليكن ما يكون، المهم أنْ تعرف شعوره تجاهها أو على الأقل تبوح له بما في قلبها نحوه، والأهم ألا يستمر هذا الوضع طويلاً لئلا تستمر في التعب والسهر أكثر.

طرقت الباب طرقاً خفيفاً، ففتح لها «مساعد» في الحال وكأنه يتوقعها أو يعرف على الأقل أنْ لا أحد غيرها سيطرق الباب في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

قالت له بصوت خفيض إنها راغبة في الحديث معه في أمر ضروري، ولم تنتظر موافقته بل دخلت في الحال إلى حوش البيت.

ارتبك «مساعد» وأصابه الخجل كالعادة، ثم اضطُر إلى القول: تفضلي.. ولكن أليس الوقت متأخراً.. كما ان والدتك وأخواتك سوف يقلقون عليك.

– متأسفه.. ولكن صدقني لايوجد أنسب من هذا الوقت والجميع نائمون لكي أتحدث معك وأقول لك ما في قلبي.

دخلا معا إلى غرفة الجلوس وهي التي يستقبل فيها

أصدقاءه. كان أثاث الغرفة على شكل جلسات على الأرض ومخدات هنا وهناك.

شرعت «مائدة» في الحديث قائلة بخبث: ماعندك غناوي عيني؟

رد «يوسف»: لا والله.. ما عندي غير ما تشوفينه جرائد مكومة وكتب ومناشير بعد.

– ليش إنت صرت تشتغل بالسياسة.

– توني راجع من اجتماع للحزب انتفخ راسي فيه.. تعبان من النقاشات الحادة والصراخ.

– اسم الله عليك.. أنا خايفة عليك من هذه السياسة.. ترى هذي اللي تودي الناس في داهية.

ضحك «مساعد» وقال: لا.. إن شاء الله تودينا عنيزة بس!

– أنا جايّتك اليوم أقول لك...

– سمي.. آمري.

– إنت شاب لطيف ومهذب.. لكن ليش عمري ما قط شفتك تتكلم مع امرأة.. تستحي ولا شنهو؟

– إنتِ شتشوفين!

– باين عليك الخجل هوايه.

تقترب منه أكثر وتطالعه بابتسامة جميلة وتعبث بشعرها بإغراء واضح، لكنه يحاول أن لاينظر اليها.

وتقترب منه أكثر وتمسك بيده اليمنى بحنان وتتلمسها لبعض الوقت.

يشعر «مساعد» بارتعاشة في يده بل وفي جسمه كله، ويحس وكأنها كهرباء قد صعقت يده.

هي نفسها أحست بذلك. فلم تكن تدرك أن لمس يد رجل ستكون بهذه الارتعاشة الجميلة، وأنها سوف تُولد فيها هذا الإحساس الرائع، لذلك قررت أنْ لاتترك يده إلا إذا تركها هو.

استمرت ارتعاشة اليدين فترة حتى شعر «مساعد» بأنه قريب من الدوخان، وهنا أزاح يده عنها وقال لها: أرجوك مائدة.. أرجوك.. أنا رجل شرقي بل ومن نجد ولم أتعود أبداً أن أجلس مع فتاة وأمسك يدها.

لم تغضب «مائدة» لأنها ببساطة تعرف من هو «مساعد» هذا. تعرف أن شجاعته قد تكون في كل شيء إلا مع النساء. وتعرف أن المرأة بالنسبة له ولغيره من مهاجري نجد الشبان شيء غامض جداً، وأن هؤلاء مهما تثقفوا وخاضوا الكثير من التجارب وسافروا إلا أنهم يبقون على خجلهم الكثير من المرأة ومن غموضها.

تعاود «مائدة» مسّك يده مرة أخرى فيستسلم أكثر

هذه المرة بينما هي تستسلم للبوح له قائلة:

أنا من أول مرة شفتك عجبتني هوايه، وسألت كثيراً عنك وكل من سألته قالوا لي إنك شاب ممتاز لكنك غريب مو من العراق. قلت لنفسي هذا مو مهم.. المهم هوْ شِنُو.

كنت أنتظرك كل يوم في الليل بشوق ولهفة، وما إن أسمع صوت نعالك حتى يهدأ بالي وتهدأ روحي وأعرف إنك وصلت بيتك بالسلامة. كنت أقلق عليك كثير، مثل هذه الليلة، إذا تأخرت، وهذه صارت كثيرة هالأيام على فكرة، لكني كنت أقول لنفسي هذا رجال ولا هو متزوج ولا عنده عيال، عزوبي لحاله، يعني خله على راحته.

لكن قلبي دائماً ياكلني عليك، يقول لي وين راح وين إجه.. شنو ياكل وشلون ينام.

يقاطعها مساعد: إلى هذه الدرجة.

– وأكثر والله شاهد.. إني .. إني بصراحة أحبك.. وموبْ بس شويه بعد.

– أنتِ عزيزة على قلبي.. لكن صدقيني ما أدري وش أقول.

وتنخرط «مائدة» في البكاء ويحاول هو تهدئتها. وعندما تهدأ تحاول احتضانه لكنه يخاف ولايقوى

على ذلك.. وتحاول معاودة فعل ذلك مرة أخرى ولكنها لاتجد منه غير الصدود.
ورغم ذلك تواصل بّوحها له واعترافها بحبها، فيما هو من يبادر بمسك يدها المرتعشة، وينصت لبوحها الجميل.
قالت وهي تمسح بقايا الدموع في عينها: عندما تحب المرأة فحبها صعب وعنيد وطويل وفيه صبر كثير وتأن أطول.. وانا يمكن أكثر امرأة في الدنيا سويت كل هذا.. عرفت عنك كل شيء بدون ما إنت تعرف وراقبتك وفعلت أشياء ما أريد أقولها الحين.
- ليش.
- بيجي وقتها لا تستعجل.
وعندما همت بالبوح من جديد قاطعها صوت آذان الفجر، فقامت منتفضة من جلستها ولبست عباءتها وقالت له وهي ترتعش خوفاً:
- أشوفك بكره.. سامحني لازم أروح البيت بسرعة قبل ما أمي تقوم من النوم وتشوف فراشي خالي.. وداعتك عيني.
رد يوسف وهو لايزال ممسكاً بيدها: تصبحين على خير.. مع السلامة.
لم يذق «مساعد» طعم النوم في الساعات المتبقية من

الليل، فقد كان ما حدث أكبر كثيرا من أن يتخيله، فما باله وأنه حدث فعلاً. جلس مع امرأة جميلة بل واعترفت له بأنها تحبه وتموت فيه عشقاً، وأمسكت بيده وحاولت احتضانه.
قال لنفسه: والله لو كان حلم ما صدقته!
في العمل ورغم الإرهاق الشديد الذي لاحظه عليه صاحب الدكان «الجبراوي» ، إلا أنه كان يقوم بعمله كما هو معتاد، لكن عقله وخواطره هناك، حيث «مائدة» والليلة الحلم التي حدثت!
كان يخاطب نفسه وهو يتبَسم: في الليل كنت سياسيا أحمق.. وها أنا في النهار أُصبح عاشقاً فجأة. كيف حدث ذلك؟ هل هذه المرأة صادقة أو أنها تحاول توريطي في شيء لا أعرفه؟ ثم كيف أُحِب وأنا في بلد غريب؟
ويكمل بوحه لنفسه: صحيح أنني أحببت «سارة الماضي» في عنيزة وكدت أُجَن بسبب ذلك، ولكن ذلك كان حباً بلا معنى، بلا أساس وبدون واقع، ومن طرف واحد. وكان من الممكن أن يكون حبي لسارة شيئاً آخر لولا أن عنيزة لاتسمح بذلك، ففي مدننا لايمكن أن نرى امرأة غريبة بشكل واضح وعن قرب، كما أنك لاتستطيع أن تبدي لها مشاعرك، أو أن تبوح لها بحبك

حتى ولو ببضع كلمات هامسة عند الباب.
ثم هل أكرر تلك التجربة المريرة التي ذقت منها المر وكدت أموت؟ هل تود أن تصاب بلعنة الحب مرة أخرى؟ بالطبع لا. حتى ولو كان هناك الآن اختلاف كبير.
كان تخوفه هو المسيطر على حاله، فهو في بلد غريب وغير مسموح له لا بالحب ولا بالصداقة ولا بمحادثة النساء. ثم إنه جاء من بيئة محافظة جدا لاتعرف الحديث مع نساء إلا مع والدته وشقيقته وزوجته.
لكن في مقابل تلك المخاوف والقلق والأسئلة المشروعة، كان في داخل قلبه يشعر أن تلك الفتاة صادقة في مشاعرها، ولم لا؟
حتى هو نفسه انتبه لها أو على الأقل عرف سر اهتمامها به منذ فترة طويلة. لكن انشغاله بالعمل والسياسة جعلاه لايعير اهتماماً لذلك، أو ربما اليقين الذي يسيطر على أحاسيسه بأنْ لا أحد سيحبه هنا، ولا فتاة سوف تعجب به، فلماذا يُشْقِي نفسه وينتظر معجزة!
لكن ليعترف الآن أن معجزة حدثت، أو حلُما تتحق. إنها «مائدة».. هذه الفتاة الجميلة التي اختارته من بين كل شباب ورجال هذه المدينة الكبيرة وأحبته بصدق.

مع توالي الأيام بدأ مساعد يضيق باجتماعات «حزب الأمة العربية» في الزبير، فأجتماعات الحزب راحت تتحول شيئاً فشيئاً إلى أن تصبح شبه سرية، وتعقد في أحد بيوت زعماء الحزب في المدينة، والادهى من ذلك أنها لم تكن تؤدي إلى فعل ملموس ولا تحرك ولا نشاط ذي نتيجة إيجابية، بل مجرد نقاشات طويلة وصراخ بين الاعضاء، وسعي محموم للتنافس على زعامة اللجان والمراكز القيادية التي لم تكن من اهتمامات «مساعد» منذ انخراطه بالحزب.
كان قد مضى أكثر من عام ونصف على انضمامه للحزب، غير أنه ظل دائماً يفضل الدعم بالتبرعات

والتركيز على الاهتمام بالقضية الفلسطينية التي كانت هي السبب الحقيقي لالتحاقه بهذا الحزب.
ولقد لاحظ «مساعد» منذ فترة مبكرة أن ثمة خلافات كبيرة بين الأعضاء وخاصة القياديين الذين كانوا همهم دائماً الاستئثار بالقرارات والخطط وإصدار الأوامر، ولايقيمون وزناً لآراء بقية الأعضاء، حيث كانوا يستمعون إليهم ولكن دون اهتمام يذكر.
في بداية التحاقه بالحزب كانت النشاطات كثيرة ومتنوعة، لكن أكثرها كان في بغداد، فقد كانت هناك أنشطة مثل المظاهرات والاحتجاجات وحملات التبرع المادية وإصدار المناشير وتوزيعها وغيرها. وكان «مساعد» يساهم في كل ذلك بقدر ما يستطيع، رغم أنه كان يؤثر الابتعاد أو على الأقل عدم المشاركة الفعلية في الأنشطة والتحركات التي تتعلق بالعراق وقضاياه الخاصة باعتباره نجدياً.

اختار «مساعد» هذا الحزب بالذات لأنه كان حزباً قومياً عربياً معظم اهتماماته وأنشطته تتركز وتتمحور حول القضايا العربية وخاصة الفلسطينية وهي التي اجتذبته إليه كثيراً. فالأحزاب العراقية الأخرى - رغم كثرتها - كانت تركز معظم أنشطتها على مشكلات العراق ومطالب العراقيين وإنّ كانت

لديها اهتمامات قومية ولكن بدرجة أقل كثيراً.
بجانب هذا الضيق لاحظ «مساعد» أن هناك وجوهاً جديدة راحت تشارك في الكثير من الاجتماعات السرية، وكان معظمهم من ذوي الثقافة البسيطة، وكان هو في شك من ولائهم للحزب إلا أنه لم يقوَ على أن يعبر عن تلك الهواجس إلا لصديقه «سعدون» العضو القديم في الحزب.

أما أكثر ما استثار إعجاب «مساعد» في الحزب هو إعلانه عن إرسال مقاتلين للحرب في فلسطين، وأن الحزب اتفق مع مجموعة قومية في الأردن لإقامة معسكر تدريب لهم قبل إرسالهم للقتال في فلسطين.
كان «مساعد» في مقدمة المتحمسين لذلك المشروع، حتى أنه استشار - في هذا الخصوص - «مائدة»! التي بكت طويلاً وطلبت منه العدول عن ذلك. لكنه عندما نزلت قوائم المشاركين وجد في الأمر رِيبة ما، فالغالبية الساحقة ممن وافق الحزب على إرسالهم إلى فلسطين هم من المشاكسين في الحزب ومن ذوي الأصوات العالية التي ينتقدون القيادة دائماً ويقفون في مواجهتها أمام كل ما يرون إنه خطأ من قِبَلها.
وعندما بدا تردده واضحا قال «سعدون»: خيراً فعلت ياصديقي.. فكل الحزب يتحدث عن أن القيادة تريد

إبعاد المشاكسين والتخلص منهم، وفي الوقت نفسه نشر دعاية وإشاعتها بين الناس وبين الأحزاب بأنها أكثر الأحزاب قومية وشجاعة وصدقاً وإخلاصاً للقضية إلى آخر ما هنالك، وبذلك تكسب عصفورين بحجر واحد.

ثم اكمل: لاتذهب يا مساعد.. هذه خدعة منهم.. وإذا كانت فلسطين ستحرر بإرسال الجنود والقتال فقط لذهبنا كلنا إلى هناك فوراً.

ومع مرور الوقت راوده شعور بأن نقاءه وصفاء قلبه بل وسذاجته وطيبته لاتصلح للعمل في السياسة، خاصة وهو النجدي البسيط القادم من عنيزة. فبعد الكثير من التجارب في الحزب وآخرها إرسال المقاتلين إلى فلسطين استنتج أن تلك الأحزاب أو العمل السياسي عموماً تحتاج إلى بشر من النوع الخبيث والثعالب والمراوغين والمنافقين أيضا، فقد كانت سذاجته في البداية توهمه أن ثقافته الكبيرة واطلاعه الواسع على السياسة والفكر، وامتلاكه لثقافة أفضل من أقرانه العراقيين هي أساس العمل السياسي والحزبي. كان المسكين يظن أن ثقافته سوف تخدم الحزب، لكنه اكتشف متأخراً بأن آخر ما تفكر فيه أو تعني به تلك الأحزاب هو الثقافة،

وأول ما تمارسه هو الانتهازية واستغلال الفرص ونسّج المؤامرات وتدبير الانقلابات، وكل تلك الأفعال التي لم يفكر فيها أبدا طوال حياته.

حتى النهّل من معين الثقافة التي كانت أملاً ومبتغى لشخصه، وكان يعقد الأمل في الحزب أن يزيد من وتيرتها، وجد نفسه مضطراً لتثقيف نفسه بنفسه، فلا ثقافة في الحزب ولا مكتبة ولا أحاديث في الثقافة على الإطلاق، ولا احتفاء بالأدب والشعر والفنون والموسيقي بالكامل.

ورغم كل هذا الضيق لم يفكر في الاستقالة من الحزب، فمهما يكن ففي هذا الحزب وجد روحه الثورية، وعثر على الكثير من أفكاره القومية وخاصة ما يتعلق بالقضية الفلسطينية.

وفي مقر الحزب كون الكثير من الصداقات التي يعتز بها، وفي بعض غرفه كان صوته يعلو أحياناً ويخفت دفاعاً عن آرائه ومواقفه.

وفي نهاية الأمر وجد أن موقفه من الحزب انتهى إلى أن يكون عاطفياً فقط أكثر منه فكرياً أو أيدلوجياً.

غيرت مشاعر «مساعد» الأخيرة تجاه الحزب منه كثيراً. وكانت أولى العلامات هو وقوعه ـ حب «مائدة» بسرعة لم يتوقعاها هو ولا هي. ففي الليالي الأخيرة أخذ يعود إلى منزله مبكرا على غير العادة. فأحيانا كان يحضر اجتماعاً هنا أو هناك للحزب، وأحياناً يقول لصديقه «سعدون»: لقد مللت وتعبت من هذا الكلام!

وكان عندما يأتي مبكرا يتعمد افتعال أو إحداث صوت ما. فكان يفتح الباب مثلاً على نحو يصل صوته إلى سمْع، أو كان يُحدِث ضجيجاً وجَلَبَةً بإسقاط مفاتيحه عامداً على الارض.

كانت «مائدة» تفهم كل تلك الحركات وتضحك من كل قلبها عليها. ومع الوقت أيقنت أن «مساعد» كان يريد أن يقول لها بافتعال كل ذلك، قول كلمة واحدة بسيطة هى: تعالَي.

وعلى عكس الشهور الماضية راحت «مائدة» تتأخر بسبب مفاجأت «مساعد» غير المتوقعة بمجيئه المبكر، وأحياناً أكثر كانت تتعمد التأخير ليزيد شوقه لها. وـ بعض الأحيان كانت تستغرق وقتاً طويلاً ـ تسريح شعرها وارتداء ثيابها، التي عادة ما تكون مغرية ومثيرة، ثم تقوم بوضع المكياج اللازم لوجهها الجميل .

ومع تطور العلاقة، غضب عليها ـ أحد الايام لتأخرها ـ القُدوم أكثر من المعتاد. وحينها قالت له بصراحة:

- انا امرأة والمرأة يجب أن تستعد لحبيبها وتتجمل له.

فرد عليها بابتسامة: ولكنك جميلة جدا.. والوحيدة ـ العالم التي لاتحتاجين إلى تجميل أو زينة أو حتى كحل ـ عينيك.

غمرت السعادة «مائدة» كثيراً تلك الليلة، وانتابها شعور بأن «مساعد» بدأ - تدريجياً - يُظهِر مشاعره

المبكوتة تجاهها. ومع ذلك فلم تكن تكف يوماً واحداً عن هذا التجمل المقصود!

استمرت لقاءات «مساعد» و«مائدة» كل يوم تقريباً إلا إذا لم تتمكن من زيارته لسبب طارىء في البيت كزيارة جيران أو سهر الوالدة أو الأخوات.

وتحت سطوة هذه الحالة ومع استمرار ذلك الوضع شعر الرجل انه لايستطيع الاستغناء عنها وعن جلساتها المثيرة وأحاديثها وغنجها وضحكاتها، وحتى عن ترديدها للأغاني العراقية التي كانت تترنم بها حين تواجدها معه وهي في قمة الطرب والاستئناس.

وفي إحدى الليالي غنت «مائدة» وبكل متعة وحماس أغنية المطربة العراقية المشهورة «عفيفة اسكندر» التي تقول كلماتها:

«حرقت الروح لِمن فارقتهم
بكيت ومن دموعي غرقتهم
حرقت الروح
حرقت الروح لمن فارقتهم
حرقت الروح
وأقول واشلون أسلاهم».

وحالما انتهت من إداء الأغنية حتى غرق «مساعد» في

البكاء، فقامت في الحال واحتضنته بشدة وضمته إلى صدرها وأخذت تمسح دموعه برفق وحنان، بل وراحت تعتذر له عن نبرة الحزن في هذه الأغنية!

كان وهي تحتضنه يبكي كطفل رضيع، ويمسح دموعه على ثيابها. فلقد أثارت تلك الأغنية شجونه وأحاسيسه إلى عنيزة وأهله هناك فعلاً. وجعلته يذرف دموع فراق وغربة لم يجد فرصة للبوح بها إلا هذه الليلة.

مع حلول الصيف حرارة الجو فيه تحول الليل عند «مساعد» إلى مجرد ظلام جميل في حضرة «مائدة»، ففي تلك الجلسات الليلية كانت هي تختصر له الدنيا في الحنان والمودة والاحتضان والأغاني العذبة رغم سطوة الحزن التي تسيطر عليها.

غير أن «مساعد» لم يكن يجرؤ على طلب الزيادة منها في أي شيء، فالخجل لم ينفك يلازمه مهما كانت جراءتها معه، حيث دأبت «مائدة» على التجرؤ كل ليلة وتبوح وتفعل الكثير. ففي أحد لقاءاتهما أحست بالشهوة لدى هذا الرجل، فتجرأت على فعل كل شيء. ففي البداية راحت تقبله في فمه ورقبته ثم

تمص شفتيه مصاً يعبر عن كل تلك الشهوة التي كانت تعتريها نحوه في الفترة الاخيرة.

لم تكتف بذلك بل راحت تأخذ يديه وتضعهما على ثدييها المكتزنين وتجعله يفرك حلمتيها برفق ولكن بلذة تجعلها تتأوه. وفي غمرة النشوة راحت تخلع ملابسها قطعة قطعة ، وراح هو المذهول يرتعد من النشوة والخوف معا .

لم يعرف «مساعد» كيف يتصرف. فهو لا يعرف اصلا كيف يمارس الجنس. فكل ما سمع من أصدقائه عن عمليه الجنس لم يكن يكفي لأنْ يمارسه بثقة ولا حتى بعفوية! وجد نفسه لايعرف شيئاً على الإطلاق. صحيح أن اللذة كانت ترتعش في كل جسده، ولكنه كان كالأعمي الذي كانت تقوده «مائدة» إلى جسدها المثير ولحمها الناعم الذي راح يقبله بشهوة وهي تضحك في غنج.

كانت تنتظره أن يشرع بفعل شيء، إلا أنه استمر في تقبيل ذلك اللحم الشهي خوفاً مما سيأتي بعد.

في النهاية أحست أن الرجل خائف أو به شيء ما، لذلك قامت في الحال وطرحته على الارض وراحت هي تفعل كل شيء. في الظلام حدث كل شيء وصرخت من الالم ومن قمة اللذة. كان ظلاماً

لايشبه كل الظلامات التي عرفها من قبل، ولذة أيضا لاتشبهها أية لذة أخرى من قبل.
أما هي بعد أن قفلت راجعة إلى بيتها فقد نامت في فراشها يخالجها شعور بلذة أنوثتها وشهوة الرجولة التي طالما تمنتها طويلا.
في الصباح راح «مساعد» يحلف بأغلظ الأيمان مع نفسه بأنه لابد أن يتزوج «مائدة» بأسرع وقت، فهو ليس رجلاً لعوباً ولا خائناً، وقد أحب هذه الفتاة ولم يجد فيها ما يعيب على الإطلاق. وتملكته فكرة بأن يكتب رسالة إلى والدته وإخوته في عنيزة يخبرهم بنيته بالزواج من هذه العراقية الجميلة.
وفي الليلة التالية أقبلت «مائدة» إليه مسرعة وارتمت إلى حضنه، وقبل أن تهم بتقبيله كالعادة قال بسرعة: مائدة.. أريد أن أتزوج منك بأسرع وقت. فعاودت الارتماء مرة أخرى إلى حضنه وقالت: حبيبي.. حبيبي.. وانا أريد ذلك.
بعد يومين كتب رسالة إلى أمه يخبرها فيها بنيته الزواج، وأورد فيها كل شيء عن عائلة «مائدة»، فكتب: «إنهم عرب أصيلون وأن والدهم متوفى قبل أعوام، أما والدتهم «أم علاوي» فهى التي ترعاهم الآن. و«علاوي» الابن يدرس في بغداد العاصمة

ويأتيهم بين فترة وأخرى. و«مائدة» عندها شقيقات هن: ظهيرة، ميمونة، فريدة، مديحة. واذا حدث كل شئ بالصورة المطلوبة فسوف أُحضر العروسة إلى عنيزة إن الله شاء مع بداية الشتاء القادم».
وعندما وصلته أخيراً رسالة قصيرة من صديقه العزيز «يوسف» يخبره فيها عن وصوله البحرين واستقراره فيه، رد عليه برسالة ، وأعْلمه أيضاً عن عزمه على الزواج لكي يفرح له.
غير أن مساعد عندما أخبر صاحب الدكان النجدي «الجبراوي» الذي يعمل معه بنيته الزواج، طلب منه أن يتريث، أما سبب ذلك فكان مجهولاً!
وعندما أخبر صديقه «سعدون» فرح له كثيراً وقال وهو يضحك: يا بَه.. بتصير عراقي خلاص.
حتى تلك اللحظة لم يكن مساعد يفكر في هذا الموضوع على الإطلاق. فلم يتعامل مع «مائدة» على أنه نجدي وهى عراقية، بل إنه لم يكتب حتى لأمه عن مبررات عزمه الزواج من عراقيه. كان الأمر في داخله هوى قلب، ومحبة صافية لاتتدخل فيها بلدان ولا جنسيات ولا غير ذلك.
مضت الأمور على أفضل حال، فقد رتبت «مائدة» مقْدَمَه إلى بيتهم، فحضر وطلب يدها رسمياً من

والدتها وبحضور «علاوي».

كانت العائلة كلها تتجه للقبول، فالأم تعرف الولد جيداً وخبرت أخلاقه، ويعرفون عنه كل شيء، عن أصوله، عن عائلته، عن بلده، وحتى عمله ودخله البسيط، والأهم أنهم كانوا متيقنين من أن «مائدة» تحبه وتريده زوجاً.

لذا تم الاتفاق على حفل الخطبة في الأسبوع القادم ثم الزواج بعد شهر. وقد قام مساعد بكل ذلك قبل أن تصله موافقه والدته.

لكن قبل حفل الخطبة بيومين فقط، لم يأت مساعد إلى بيته كعادته في الليل، ولم تنم «مائدة» حتى الصباح انتظاراً له .

بعد مغادرة «مساعد» عمله بالسوق التقي بصديقه «سعدون» الذي أخبره عن عقد اجتماع مهم لحزب الأمة العربية الذي ينتميان اليه ويشاركان في عضوية لجانه. ومع أن «سعدون» كان يعرف رأى «مساعد» في اجتماعات الحزب في الفترة الأخيرة ونفوره منها وعدم حضوره الكثير منها مؤخراً، إلا أنه ذكر أن الاجتماع هذه المرة مهم كما سمع وسيحضره الكثيرون وفيه ستتقرر أمور كثيرة.

اقتنع «مساعد» بهذا الكلام لثقته بصديقه أولا، ولرغبته في حضور الاجتماع حتى لايظن أحد وخاصة في القيادات أنه ابتعد أو أنه ينوي ترك الحزب بالمرة.

توجه الاثنان معاً في الساعة السابعة مساءً إلى بيت أحد الزعماء حيث يعقد الاجتماع فاستقبلهم بترحاب شديد في البداية. وعندما وقعت نظرات «مساعد» على الوجوه الحاضرة خالجه شعور بالتشاؤم حيث وجد أن الكثير منهم أشخاص لايعرفهم، وبعضهم لم يكن يرتاح إليهم.. هكذا لله في لله.

بدأ الاجتماع بعد خمس دقائق تقريباً، وطرح أحد زعماء الحزب فكرة الانضمام إلى حزب «القومية الجديد» المعروف أكثر بتشدده في القضايا القومية وتبنيه وجنوحه للعنف.

دارت المناقشات سريعاً وبدا واضحاً أن هناك أكثرية ترفض هذا الاندماج، الذي وصفه أحدهم بأنه انتحار جماعي للحزب.

كانت النقاشات ساخنة وعلى أشُدها، لكنه توقفت فجأة بعد سماع طرق شديد على الباب وصراخ في الخارج، فأسرع صاحب البيت بفتح الباب لاستيضاح ما يجري ففوجىء بثلة من الشرطة مدججة بالبنادق الطويلة والمسدسات.

لم يقوَ الرجل على المقاومة، فاندفع رجال الشرطة في الحال إلى غرفة الاجتماعات، وكانوا على ما يبدو

يعرفون المكان جيداً. وحاول بعض المجتمعين الهروب والفرار هنا وهناك، فـ «سعدون» حاول الهروب فوق السطح، وعضو آخر تمكن من القفز فوق سطح الجيران، لكنْ قُبِض عليهم جميعاً في النهاية.

كانت حصيلة الاعتقالات حوالي أربعة وعشرين شخصاً أي المجتمعون كلهم. وجرى حشرهم في «لوري» الشرطة، وسط صراخ الأطفال وعويل النساء في البيت وبيوت الجيران، الذين خرجوا بسرعة لرؤية المداهمة ومتابعتها والتي بدأت وانتهت في غاية السرعة.

في داخل اللوري الذي تم حشدهم فيه راح بعضهم يهتف بعفوية وبغضب شديد: «فلسطين عربية» و«عاشت جامعة الدول العربية» و«يسقط.. يسقط الاستعمار». وحاولت الشرطة إسكاتهم طوال الطريق ولكن بلا فائدة. وكان بعضهم في أشد حالات الحنق والمرارة على هذه الاعتقالات لأغلب قيادات الحزب وأهم كوادره، بعضهم وجد أن ما حدث هو مؤامرة من جانب قيادات حزب القومية الجديد! وآخرون رأوا أن قوة حزبهم وتمكنه هي التي جعلت المخابرات العراقية تعتقلهم.

كان «مساعد» وحده الملتزم بالصمت في اللوري،

ووحده الذي خمن أن تلك الاعتقالات كانت بسبب الاختراقات الواضحة من المخابرات للحزب، بحيث كانوا يعرفون مكان ووقت الاجتماع، وكانوا ينتظرون اجتماعا «دسما» مثل هذا كي يداهموه ويشنوا اعتقالاتهم. لكن هذا كان حظ «مساعد» و«سعدون» اللذين قادهما حظهما العاثر لحضور هذا الاجتماع المأساوي بعد غياب طويل عن الاجتماعات.

كان جميع المعتقلين وربما حتى الشرطة الذين كانوا يحرسونهم يتصورون أن الشاحنة سوف تقلهم بأسرع وقت إلى مركز الشرطة في الزبير، لكن عندما طال الطريق وبَعُد تصوروا أنهم سوف يُنقَلون إلى البصرة وراحوا ينتظرون ويسألون الشرطة الذين قالوا إنهم أيضاً مثلهم لايعرفون إلى أين هم ذاهبون. ولم يكن الطريق وعراً فحسب بل طويلاً جداً. فمرة يجدون أنفسهم قرب النهر ومرة بجانب بساتين نخيل ومرة أمام قرى لايعرفونها. طالت الرحلة فشعر بعضهم بالتعب فتمدد فوق سطح الشاحنة وآخرون استمروا في الوقوف ترَقباً وانتظاراً للمجهول. وهنا انتبه «سعدون» وقال لهم: نحن ذاهبون إلى بغداد!

وفعلا وصلت الشاحنة بعد حين إلى مركز كبير

للمخابرات وسط بغداد ، وتم إنزال المعتقلين بهدوء وبدون عنف.

داخل المعتقل أو السجن وجدوا أنفسهم موزعين على زنزانتين واحدة زجوا فيها القياديين وكانوا ستة، والباقون في زنزانة اخرى، وكان هذا يعني أن المخابرات كانت تعرف القيادة والكادر وكل شيء، وأنها ليست بحاجة إلى معلومات ولكن إلى أشياء أخرى!

نام الجميع ليلتهم التعِسة، وفي السادسة صباحا بوشر بإيقاظهم للتحقيق.

فهِم «سعدون» و«مساعد» أنهم سوف يحققون مع القياديين أولا ثم مع الآخرين فيما بعد، لذلك صار لديهم وقت للاستعداد سواء للضرب أو للكلام!

أعيد القياديون ووجوههم مُرهَقة وعليها كدمات كثيرة من أثر الضرب والتنكيل والتعذيب، وبعضهم - كما شاهدهم مساعد وهو ذاهب للتحقيق - بالكاد كانوا يستطيعون المشي . ولاشك أن هذا المشهد قد أثار الرعب والخوف في قلبه.

عندما دخل مساعد على ضابط المخابرات العراقي الكبير، قال له في الحال:

- ويش اسمك؟

- مساعد هلال.
فرد الضابط: أنت نجدي ويش دخلك بينا يا كلب؟
- أنا قومي عربي وقضيتي في الحزب هي فلسطين فقط.
وفجأة تلقى «مساعد» ضربة قوية على وجهه كادت أن تهوي به على الأرض.
وهنا قال ضابط آخر: رد على سيدك عدل يا حمار.
فردد «مساعد» ما قاله للضابط الكبير، فتلقي ضربة أخرى أقوى هذه المرة أسقطته على الأرض وكادت أن تفقده الوعي.
قال الضابط الكبير: أنت أصلاً شنو جايبك العراق.. أنت ما عندك بلد يا قواد!
هنا انتقض «مساعد» وهو في الأرض ورد بصوت خفيض ولكنه مسموع: القواد أنت وأمثالك.
وعندها توالت الضربات بالأحذية الثقيلة والأحزمة والعصي على من كل ناحية على جسد «مساعد» حتى غاب عن الوعي، فتم سحبه من غرفة التحقيق وأودع مرة أخرى في الزنزانة.
استيقظ «مساعد» بعد غيبوبة طويلة، فيما كان «سعدون» صديقه يحاول أن يمسح بعض جروحه ويخفف عنه.

خارج سجن بغداد أخذت الأخبار ترد إلى الزبير تباعاً وبالذات إلى بيت «أم علاوي» بأن «مساعد» صار معتقلاً سياسياً في بغداد وأن وضعه صعب. وكان ذلك محل استغراب من قبل الأم وبناتها الذين بكوا على «مساعد» كثيرا، غير أن «مائدة» لم تذرف دمعة واحدة عليه، بل كانت مشغولة في أمور أخرى، فقد كانت تسأل بعض أصدقائه ومعارفه عن مكانه وأين يمكن أن تذهب إليه، بل قامت وبشجاعة وتوجهت إلى التاجر النجدي «الجبراوي» الذي يعمل «مساعد» عنده وأخبرته عما جري، وطمأنها التاجر بأن مكان «مساعد» محفوظ مهما جرى له، وطلب منها نقل تحياته إليه عندما تراه.
قصدت «مائدة» كل أصدقاء «مساعد» ومعارفه في الزبير، وجمعت الكثير من المعلومات عن مكانه ووضعه وظروفه.
وبعد أربعة أيام سافرت «مائدة» ومعها شيء من الطعام وبعض الثياب والكتب لكي تعطيها لحبيبها.
وعندما وصلت إلى مركز المخابرات في بغداد بعد رحلة شاقة رُفِض طلبها مقابلته، وعندما ألحت على ذلك واستعطفت أدخلوها على ضابط صغير قال لها في الحال:

- والله لو مو هالحلاوة ما كنت أنطيه هالأغراض.
- مشكور عيوني.

وراح الضابط يحاول مغازلتها، وهي تحاول بالمقابل أن تنال موافقته على مقابلة مساعد.

في النهاية اعترف الضابط: هسه.. عيوني ما أقدر، وحتى الملك ما يقدر يخليك تشوفينه.

يأست «مائدة» في النهاية واستسلمت للأمر، ووجدت أنها على الأقل قامت بما يجب وبتوصيل بعض الأشياء إليه رغم أنها عادت بالكتب لرفضهم الشديد إدخالها اليه. في طريق العودة بكت «مائدة» لأول مرة على فقدانها حبيبها ومصيره المجهول. فلأول مرة تذوق طعم فراقه ووحشة البقاء في الزبير لوحدها بلا ذلك الرجل الحبيب الشهم النادر الطيب. غير أن هذا الحزن الداخلي الكبير في قلبها وروحها على فراق «مساعد» كان يقابله إصرار أكثر وثقة لم تشعر بها طوال حياتها على استعادته، وعلى بذل المستحيل من أجل عودته إليها.

كانت تشعر أنها تحتاج وبشدة كأي امرأة في الدنيا إلى أن تذرف الدموع، فهذا هو وقتها ومكانها، لكنها لن تستعيده بالدموع بل بإصرارها وبشجاعتها وربما بتضحيتها القادمة.

لم تتأخر الأخبار كثيراً عن «يوسف» في المنامة، فقد وصلته رسالة أشبه بالبرقية من أحد اصدقاء «مساعد» النجديين في الزبير يخبره عن اعتقال «مساعد» وسجنه في بغداد.

كان أول تعليق يتفوه به «يوسف» بعد قراءة للرسالة القصيرة: هكذا أنت يا مساعد الله يهداك.. متطرف في الحب ثم متطرف في السياسة. لكن رغم هذا التعليق الساخر كان حزنه شديداً على صديقه ورفيق دربه. إلا أنه لم يعرف كيف يتصرف وبأي شكل يساعده وبأية طريقة يسانده، فهو في المنامة وصديقه ببغداد، والاميال طويلة والمسافات

شاقة سواء بالبحر أو البر.
أطْرقَ في التفكير لحظات ثم قال لنفسه: ولكن على الأقل أضعف الأيمان أنْ أخفف عن عذابه في السجن.. أن أسانده بالنقود التي ربما يحتاجها، وبالكلام والتضامن المعنوي الذي هو في أشد الحاجة إليه.. بأي شيء وبأي صورة.. إنه «مساعد» صديقي الحبيب.
وجد «يوسف» نفسه رغم تلك الأفكار والاسئلة عاجزاً عن القيام بشيء أو اتخاذ قرار ما. وحينما أعلَم معارفه النجديين الكثيرين في المنامة عن وضع «مساعد»، ذُهِلوا جميعاً لحال صديقه، وكيف أنه وصل إلى هذا الحد من الخوض في السياسة الذي لم يبلغه أحد في عنيزة، واحتاروا في كيفيه إبداء أية نصيحة أو أية فكرة وطبعاً أي قرار.
حتى التجار النجديين الكثيرين العاملين في سوق المنامة الذين قصَدَهم «يوسف» وطلب رأيهم لم يستطيعوا أن يشوروا عليه بشيء، سوى بنصحه بإرسال بعض المال إليه وفي أسرع وقت، لأن الإنسان في رأيهم وخاصة في المحن والمصائب يكون في أشد الحاجة إلى المال.
على أن المال لم يكن هو المشكلة الخطيرة عند

«يوسف» المحتار، فهو يبحث عن تضامن معنوي، وعن وقوف جدي مع صديقه وحبيبه. فماذا يفعل؟
سأل نفسه هذا السؤال الهام وصمت فترة طويلة وهو مستغرق في التفكير. بعدها قال لنفسه: على الأقل أكتب رسالة إلى خطيبته المسكينة أُبَين تضامني ووقوفي معه ومعها، وأسألها عن احتياجاتها وطلباتها وغير ذلك. وأدون كل هذا الكلام في برقية مهما كلفني ذلك من مال.
كان قراره حكيماً وارتاح له شخصياً وكتب البرقية في الليل وبعثها في الصباح في مركز البرقيات القريب من سوق المنامة.
عند هذا الحد أرضى «يوسف» بعض ضميره، غير أن قلقه عليه عكر صفو إقامته التي وجدها جميلة في البحرين .
لم يكن يوسف يتوقع أن تكون هذه الجزر بهذه الصورة المريحة والجميلة. فمنذ وصوله إليها قبل شهور قليلة شعر بسرعة بالتأقلم وبالتآلف مع هذه المدينة «المنامة» ومع أهلها. فلم يشعر أنه غريب على الإطلاق، ولم يحس أنه مغترب في جميع الأحوال.
اتخذ محل سكن له في حي «الفاضل» الشهير قرب

السوق، وكان أفضل مكان على الإطلاق حينها للسكن في المنامة، فقرب هذا الحي كان يوجد كل شيء من بضائع ومشتريات، ويستطيع الحصول على كل ما يريد مهما كان صعبا. ففي هذا الحي تتواجد الغالبية الساحقة من تجار نجد وبالذات تجار عنيزة ويسكنون هم وعائلاتهم. وفي هذا الحي - الذي يقيم في أطرافه المستشار البريطاني لحاكم البحرين، وكذلك دار الاعتماد البريطاني التي كانت تحكم البلاد تقريباً ــ كان كل شيء قريباً وممكناً ومهماً. وعلى الجهة الشرقية للحي كان البحر ممتدا على مد البصر.

اما العمال والموظفون والحمالون وغيرهم من الكادحين النجديين فكانت غالبيتهم من سكنه هذا الحي والحي القريب منه الذي يسمي «العوضية».

كان من حظ «يوسف» أن يحصل على عمل في البداية عند أحد تجار عنيزة الكبار المشهور بـ«العم سليمان» الذي كان يمتلك في الحي بيتاً كبيراً جداً، وبه مجلس كبير للزوار وغرفتان كبيرتان للضيوف تتسعان على الأقل لأكثر من ثلاثين شخصاً يمكنهم النوم والإقامة والأكل في بيته.

كان «العم سليمان» كريماً جداً مع أهل عنيزة

وخاصة الفقراء والكادحين منهم، وقد شهد «يوسف» واقعة تدل على ذلك، ففي أحد الأيام دخل «العم سليمان» على مضافته في البيت صدفة وبدون ان يقصد ذلك، فسلم على رجل يعرفه من عنيزة، وقال له: الحمدلله على السلامة. فرد عليه ذلك الرجل وهو يضحك: أنا عندك يا عم سليمان من أكثر من عشرين يوم جالس وماكل وشارب وأنت تقول لي الحمدلله على السلامة.

تلك واحدة من القصص التي شاهدها وعاينها «يوسف» بنفسه في ذلك البيت الكريم الذي أقام فيه.

كان معظم المقيمين في ذلك البيت هم من الفقراء الذين لايملكون ولو قروشاً قليلة للسكن أو الأكل، وكان بحثهم عن العمل هو شغلهم اليومي. ومع توفير الإقامة والأكل وغير ذلك لهم، كان «العم سليمان» يحاول أيضا البحث لهم عن عمل في أي مكان في المنامة.

وبعد أن توافد عليه العشرات بل ربما المئات وخاصة من أهل عنيزة، وجد «العم سليمان» أن أفضل مَن يستطيع التنسيق مع التجار الآخرين وأصحاب الدكاكين وغيرهم لتوفير الأعمال لهؤلاء الفقراء

والكادحين في البحرين، هو «يوسف»، فقد وجد فيه شخصاً مثقفا، ورجلا يفهم الكثير ويمتلك شيئاً من الخبرة لابأس به، كما أنه يعرف الغالبية الساحقة من أبناء عنيزة وأهلها.

قبل يوسف بالوظيفة الجديدة بعدما كانت وظيفته السابقة هي العمل في مخازن «العم سليمان» بقرب السوق.

وبرغم المشكلات الكثيرة لتلك الوظيفة وخاصة مع الكادحين منهم إلا أنه كان يتعامل مع الوضع بضمير حي وذهن متوقد في أي مكان يذهب إليه.

كانت أوضاع هؤلاء الكادحين صعبة للغاية بل وتثير الشفقة عليهم. فأحدهم قال لـ«يوسف»: ترى أولادي صار لهم أيام ما كلوا بعنيزة.. أرجوك ثم أرجوك تشوف لي عمل الليلة قبل بكره. فيضطر «يوسف» إلى أن يبدأ بتشغيل هؤلاء «الجوعي» قبل غيرهم حتى ولو أوصى «العم سليمان» بغيرهم.

وعندما كان «يوسف» في عنيزة لم يشاهد هذا الكم الهائل من الفقر ومن الكادحين الذين جاءوا يبحثون على عمل، أي عمل، وعن أية لقمة عيش يبعثون بها إلى أفواه عيالهم الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر.

المشهد الذى كان يراه ويعايشه صعباً وعصياً على التصديق، كان قلبه يعتصر ألماً عليهم، ويحار أحيانا ماذا يفعل، فقد أسند إليه «العم سليمان» الكريم مهمة صعبة، وكلفه بعمل شاق، فالأعمال نادرة والأفواه الجائعة كثيرة. ورغم تلك المصاعب والمآسي التي لم تكن تنتهي كل يوم بل كل ساعة، إلا أنه كان يجد سعادة بالغة وضميرا مرتاحا لايوصف عندما يجيئه في أحد الصباحات رجل من أهل عنيزة ويقول له: ترى كل عنيزة تدعو لك يا يوسف.. قبل أسبوع وصل بيتي أول مبلغ من البحرين والفضل لله ثم لك، وهم ترى يدعون لك بالخير وكل أهل عنيزة بعد.

لم يشعر «يوسف» بسعادة أكثر من هذا الذي قاله هذا الحمال العامل بالميناء بالمنامة، الذي كاد ظهره أن يُكسَر من ثقل الأكياس والحمولات التي يحملها على ظهره كل يوم.

ومع الأيام كانت الشهادات تتوالي على «يوسف» من جميع فقراء عنيزة في المنامة، فقد كانوا يشعرون بالامتنان الشديد له ولـ«العم سليمان» طبعاً ولبعض تجار نجد الآخرين.

بهذا الضمير الحي والتصرف الناضج كان ينام

«يوسف» كل ليلة على سريره ببيته في حي الفاضل مرتاحاً بل وفي غاية الرضا على نفسه، إلا أنه يخالط ذلك بعض القلق على والدته وشقيقته وعنيزة بالطبع، وعلى صديقه «مساعد» بالزبير.

بعيدا عن العمل كان «يوسف» مولعا بالسينما أو بليالي الأنس في المنامة كما كان يسميها قياساً على أغنية «ليالي الأنس في فيينا» للمطربة المشهورة «أسمهان»، فقد أُعجب بالسينما وشُغِف بها منذ الأيام الأولي لقدومه إلى البحرين. لكنه في البداية كان يذهب إلى دار السينما وهو متخوف متحرج أن يراه أحد من النجديين أو من التجار أو أولاد «الحَمولة». فمهما يكن لم تكن السينما عندهم بعدُ شيئاً عادياً، فلذلك كان توخي الحذر مهما بالنسبة إليه خاصة وأنه لم تمض على إقامته في الغربة سوى شهور قليلة.

كان ما يشغل «يوسف» بعد أن ألم بالمحيط الجديد حوله، هذا العالم المدهش وأن يشاهد كل العجائب والغرائب بما فيها النساء والصور التي تتحرك عبر شاشة السينما. ومنذ الفيلم الأول انغرس فيه عشق كل الافلام، فمرة يرتاد السينما لمشاهدة فيلم هندي ومرة فيلم عربي ومرة أمريكي، وأحيانا كان يتردد على مشاهدة فيلم معين عدة مرات. وأُولع بالسينما رغم ما كانت تستنفد الكثير من دخله، وزاد من حبه لها انه راح يطالع المجلات المصرية التي كانت ترد إلى البحرين بكثافة وتتحدث عن الافلام الجديدة والممثلات والممثلين عرب أو أجانب. وكان أحبهم إلى قلبه من النساء: ليلي مراد، ليلي فوزي، سامية جمال، مديحة يسري، فاتن حمامة، أمينة رزق، تحية كاريوكا، وغيرهن، أما من الممثلين فقد أعجب بشدة بـ: أنور وجدي، حسن فايق، يوسف وهبي، محمود المليجي، عبدالفتاح القصري، حسين صدقي، سراج منير، يحيى شاهين، وغيرهم.

واعتاد «يوسف» أيضاً بعد أن ينتهي عمله بالمغرب الذهاب إلى مقهى قريب وهناك يقرأ إعلانات عن أفلام سينما البحرين. وفي أحد الأيام قرأ هذا الإعلان:

«سيقدم في الأسبوع القادم فيلم ملكة المسارح السيدة بديعة مصابني.. الفيلم الذي اهتزت له أندية الطرب في الشرق العربي.. كله رقص وكله غناء. عشرات من أجمل الفتيات يرقصن جملة واحدة مرات متعددة».

كانت السينما هي عالمه الجميل والساحر، وكانت هي كل الليالي أو ليالي الأنس كما وصفها. وبجانب السينما كان المسرح أيضاً الذي تعرف عليه من إعلان صغير كان موضوعاً في أحد الأيام بجانب مقاه المعتاد. وكان الإعلان من نادي البحرين بالمحرق ويقول: «نادي البحرين بالمحرق يقدم للجمهور الكريم الرواية «المسرحية» الشهيرة «مجنون ليلي» على مسرحه الخاص تحت رعاية وزير المعارف.

ملخص الرواية: تصور لنا هذه الرواية حياة العرب في البادية أبدع تصوير، إذ تروي لنا قصة أشهر حب عذري تبودل بين عاشقين، بعفافه وطهره.

زمن الرواية: صدر الدولة الأموية.

مكان الرواية: بادية نجد.

هذه الرواية الرائعة: عفاف، طهر، شهامة تبدو واضحة جلية، تقدم في حلة قشيبة دبجتها براعة

أمير الشعراء وأخرجتها جماعة التمثيل لنادي البحرين».

كان هذا الإعلان مغرياً لدرجة أن «يوسف» اشتري تذكرة في الحال له ولأحد أصدقائه، وعبرا في تلك الليلة إلى المحرق بواسطة باص.

في المنامة تحديداً وفي المحرق بعض الأحيان كان «يوسف» يرى في البحرين حياة حافلة بكل شيء، فالصحف والمجلات كان يقرأها في بيت التاجر «العم سليمان» المشترِك في الكثير منها، وكان الكثير منها مما لم يشهده من قبل في مجلس الشبلاوي بعنيزة.

على الصعيد الاجتماعي الشخصي كان مقلاً من ناحية التعارف مع البحرينيين، مكتفياً بصداقته مع أهل نجد وخاصة جماعة عنيزة.

أما الوحيد الذي استطاع كسر عزلته مع البحرينين فهو «جعفر» الذي تعرف عليه في المقهى، وصارا يلتقيان بها كل يوم بعد المغرب. وتوثقت معرفتهما عند عرفه «جعفر» على والده «مهدي» في دكانه الصغير بسوق المنامة، والذي كان يبيع الأقمشة السوداء والأعلام الخضراء وقمصاناً للأولاد المكتوب عليها بالخيوط البيضاء من الجهة اليمني

«ياحسين» ومن الجهة اليسري «ياشهيد».

ولم يستوعب «يوسف» حينها تلك الأشياء والاختلاف بين المذاهب وتباينها، وخاصة بين المذهبين السني والجعفري، حيث لم يكن المذهب الجعفري معروفاً لدى أهل عنيزة ونجد كلها، إلا بعد وقت طويل وشروحات كثيرة من صديقه «جعفر». ولما طلب «يوسف» من «جعفر» في أيام شهر محرم أن يشاهد عزاء الشيعة وسط المنامة، اصطحبه معه في اليوم التالي ليشاهده.

في ذلك اليوم شاهد يوسف ما لم يشاهده في حياته، حيث جموع من الشباب يضربون على صدورهم التي احمرت من شدة الضرب وهم يصرخون: ياحسين.. ياشهيد. ثم شاهد شباناً آخرين يضربون ظهورهم بسكاكين وغيرها والدماء كانت تنزف منهم.

شعر «يوسف» في ليل ذلك اليوم أنه شاهد شيئاً أشبه بالفليم السينمائي ولكن في الشارع. وعندما طلب منه «جعفر» منه الانتظار للعشاء في المأتم القريب اعتذر منه بسبب شعوره بالتعب.

كان راتب يوسف خمسين روبية في الشهر ثم ارتفع فأصبح سبعين روبية، ومكنته تلك الزيادة من «العم سليمان» من تخصيص ميزانية بعضها للسينما

والمقهي والمصروف اليومي، والباقي إرساله إلى والدته في عنيزة، والتي فرحت كثيراً بوصول المبلغ الأول منه. وقالت له في إحدى رسائلها إليه: «ياوليدي.. تراني فرحت بالحيل لما وصلتني قريشاتك من البحرين، لكني أبي أقول لك إن جواهر أختك ما مقصرة علي.. فأرجوك إن لاتبخل على نفسك واتحمل بصحتك وبس».

ورغم ذلك الانشغال بجو البحرين إلا أن قلق «يوسف» على «مساعد» أخذ في التصاعد. وبسبب ذلك كتب رسالة أخرى إليه عن طريق خطيبته «مائدة» في الزبير يخبرها أنه أرسل لها من قبل برقية بخصوص «مساعد» ولم يصله أي رد عليها، كما أنه قلق جدا على وضع «مساعد»، وطلب منها أن تزوده بأيه أخبار عنه وبأسرع وقت.

لم تكن الأخبار عن «مساعد» شحيحة فقط، بل إنها مع الوقت انعدمت تماماً وأصبح «يوسف» لايعرف عنه شيئاً تماماً.

استمرت التحقيقات مع «مساعد» في السجن الخاص بالمخابرات العراقية ببغداد لبضعة أيام، ثم توقف لمدة شهر ليعاود المحققون الكَرة من جديد. وبالمقابل كانت صحته تتحسن ثم تتدهور مع كل تحقيق، حيث كان يقابل عنفَهم اللفظي بعنف لفظي آخر، وشتائمهم بشتائم رغم كل الضرب والعنف الذي يتعرض له.

في آخر مرة كان الضابط الكبير يسأله عن نيته اغتيال بعض الوزراء، فيرد عليه «مساعد» بأنه لايؤمن بالعنف، وأنه قومي.. ولكنه ربما يستخدمه مع الصهانية.

هنا ثار الضابط وصرخ في وجهه: يا يبه.. إنت كل ما قلنا لك شي وسألناك سؤال قلتلنا قومية.. وقومية.. قومية في طيزك.

- اسكت يا أكبر قواد.. ياكلب الاستعمار.

وينتهي التحقيق بحفلة تعذيب ويعود «مساعد» إلى زنزانته غائباً عن الوعي كالعادة.

وفي تحقيق آخر قال الضابط الكبير موجهاً كلامه للشرطي الذي أحضر «مساعد» وأوقفه أمام مكتب الضابط في غرفة التحقيق:

- جيت يا كلب.. إنت جاي من «عنزه» ولا «عنيزه» العن أبو شواربك.

هنا صرخ مساعد في وجه الضابط: إلا عنيزة.. ما تتمسخر عليها.. هي ديرة العرب كلهم يا قواد.

شعر «سعدون» أن «مساعد» إذا ما استمر على هذا الحال قد يموت أو يصاب بالشلل أو بمرض خطير لا سمح الله. وبعد أيام وجدها فرصة للتحدث مع «مساعد» الذي صار أكثر جسده مصاباً بالرضوض والكدمات الزرقاء والجروح المفتوحة في كل مكان.

فبعد عشاء لايكاد يستساغ أكله قال «سعدون»: يا مساعد.. شوف.. ألف باء المخابرات عندنا، وأكيد في كل العالم، هي أن يذلونك ويهينونك بالشتائم

وبالضرب.. هذه مبادئ المخابرات. وبعد ذلك يحاولون انتزاع الاعترافات التي يريدونها منك.

وأكمل: لذلك اسمعني زين يا مساعد.. يجب أن تعلمك المذلة أن تكون قوياً وليس أن تكون منهاراً، أو على الأقل أن تكون صبوراً على عنفهم ووحشيتهم. هؤلاء لايعرفون ربهم ولا دين عندهم إلا الضرب وارتكاب الجرائم ورضى مسئوليهم الكبار عليهم. تأكد أنك إذا مت فلن يجزع أحد منهم أو ترف له عين، بل ربما يضحكون على موتك ويرقصون على جثتك. حاذرهم يا مساعد يا صديقي.

في الأسابيع التي تلت ذلك توقفت التحقيقات تماماً ومعها ضرب وتعذيب «مساعد» ورفاقه، وبعدها بأيام علم معتقلو حزب الأمة العربية أن اعتقالات مكثفة طالت أعضاء في الحزب الشيوعي، لكن أكثر الأخبار التي أقلقتهم وهم في السجن هى إطلاق سراح كل زعماء الحزب وبعض الكوادر والإبقاء على حوالي خمسة فقط منهم من بينهم «مساعد» و«سعدون».

كانت هناك تخمينات كثيرة وراء ذلك. بعضهم قال إن زعماء الحزب عقدوا صفقة مع المخابرات مقابل إطلاق سراحهم، وآخرون قالوا إن تلك خدعة من المخابرات لكي يجعلوا بقية المعتقلين يعترفون

وبسرعة بعد أن اعترف الكبار منهم. وفي ظل تلك التخمينات والأقاويل كان «مساعد» و«سعدون» وحدهما يبتسمان ويتسامران قائلَين: على ماذا نعترف؟ نعترف على أننا أعضاء في الحزب؟ طيب العراقيون أو أكثرهم أعضاء في أحزاب! نعترف أننا وزعنا مناشير ضد الصهيونية وشاركنا في مظاهرات تنادي بعروبة فلسطين! هل هذه أشياء يجب الاعتراف بها والجميع وأولهم المخابرات يعرفون ذلك.

أما وثائق الحزب السرية وعدد أعضائه ولجانه السرية والعلنية وأمواله ومصادر تمويله والعلاقات مع الأحزاب الأخرى فكلها عند القيادة، ونحن لانعرف عنها شيئا!

ماذا تريد المخابرات بالذمة؟ هل تريد إذلالنا فقط؟ أو تأديبنا وجعلنا عبرة للناس المساكين الذين انخرطوا لتوهم في السياسة واشتركوا في الأحزاب؟ كل هذا جائز ووارد، لكن لا أحد يعرف ماذا يدور في رأس الضباط الكبار في المخابرات؟

وكلما توقفت التحقيقات تماما أصبحوا سجناء عاديين لايعرفون مصيرهم، كلما زاد قلقهم ليس على أنفسهم ولكن على أحبائهم خارج السجن. فقد

اختارت «مائدة» يوم خميس لتحاول ضمن محاولاتها المستمرة رؤية «مساعد» في سجن بغداد، وكانت هذه المرة تحمل معها رسالتي «يوسف» من البحرين والأغراض المعتادة من طعام وثياب وغيرها.

قبل خروجها من البيت ومعها اختها «ظهيرة» شعرت بغثيان فعادت إلى البيت بسرعة وأفرغت كل ما في معدتها، وهي تتوجع من الآلام ومعها أختها في الحمام تساعدها.

كانت هذه هي المرة الأولي التي تصاب فيها مائدة بهذه الحالة، ولكنها لم تكن الأخيرة، فقد راحت تصاب بالصداع الفظيع، ومع تطور الموضوع عرفت الأم أن ابنتها حامل بالتأكيد، ثم عرفت الاخوات الباقيات بالحمل بأسرع مما توقعت « مائدة» نفسها.

الأم راحت تساعدها على وضعها الجديد، وفي الوقت نفسه لم تُظهِر غضبها الشديد من هذا الحمل غير المتوقع. وفي الأيام اللاحقة أحست «مائدة» بأن كسلها يكثر ورغبتها في النوم تزداد، فيما كانت مشاعرها الحزينة تسيطر على قلبها وروحها، واشتدت رغبتها في البكاء وخاصة إذا ما ذُكِر اسم «مساعد» لأى سبب.

وطيلة الأيام التي كانت «مائدة» ملازمة فيها

لفراشها لم يردها أي خبر عن وضع «مساعد» في سجن بغداد. وبعد أربعة شهور على اعتقاله وثلاثة شهور على حملها وصلها خبر أفرحها كثيراً. فقد طرق باب البيت في ليل متأخر «سعدون» وقال لهم:

- عندي لكم أخبار زينة.. أنا اليوم أطلقوا سراحي.. وإن شاء الله هاليومين يطلقون «مساعد» بعد.. جيبت أبشركم.

لم تنم عائلة «أم علاوي» تلك الليلة من الفرح، بينما بكت «مائدة» من فرحها وراحت تتحسس بطنها وكأنها تقول لابنها الذي بدأ يتكون داخل أحشائها إن أباك قادم!

بعد أربعة أيام من خروج «مساعد» من المعتقل تم عقد القران على «مائدة» وسط فرحة كبيرة.

كان أول شيء يفعله «مساعد» بعد عودته إلى حياته الطبيعية هو تقديم استقالته من حزب الأمة العربية. وقد فعل ذلك دون تردد، بعد تفكير وتأمل طويل أيام اعتقاله.

وكانت المفاجأة أنه اكتشف أن صديقه «سعدون» قد فعل الشيء نفسه، بل إن الكثير من أعضاء الحزب استقالوا أيضاً بعدما اكتشفوا الكثير من الخيانات والانتهازية وغيرها من الفضائح عند الزعامات.

أما قيادة الحزب فقد أصدرت بياناً نارياً اتهمت فيه المستقيلين جميعهم بالانهزامية والتخاذل بعد إن تلقوا بعض الصفعات البسيطة في السجن! ولم تكتف القيادة بذلك بل روجت داخل الزبير وخارجها بأن هؤلاء المستقيلين قد كشفوا عن وجههم القبيح وهو التعامل مع الاستعمار والتآمر ضد العروبة! إلا أن تلك الحرب النفسية التي شنها الحزب على المستقيلين لم تُثْنِهم عن استقالتهم من الحزب.

فقد تتالت جلسات الشاي بمقهي «النوري» في الزبير بين «مساعد» و«سعدون» والأصدقاء الآخرين. وكانت أغلب أحاديثهم في الأيام الأولي من خروجهم من السجن هو السخرية والضحك على بيانات وشائعات الحزب.

كان هؤلاء الأصدقاء يرون في اشتراكهم واستقالاتهم من ذلك الحزب القومي مجرد محطة في حياتهم. وبل عبر كثيرون منهم وعلى رأسهم «مساعد» أنهم كرهوا الأحزاب كلها.. كرهوا نفاقها وجبنها وتقاعسها وبيروقراطيتها وتخاذلها وانتهازيتها وكل شيء فيها.

في بعض الليالي كانت تلك الأمسيات تستمر حتى وقت متأخر ويكون «مساعد» هو أول المغادرين لأنه

المتزوج الوحيد في تلك «الشلة»، وهذا ما كان يثير حسد البعض منهم حينما يقولون له:

- إيش عليك.. عندك أحد ينتظرك ويخاف عليك.

ويزيد آخر:

- واحنا لو ننام شهرين بالقهوة ما سألت عنا حتى القطوه!

ويسمع «مساعد» حديثهم وهو خارج من المقهى فيبتسم لأن «مائدة» وما في بطنها ينتظرانه على أحَر من الجمر.

عندما خرج «مساعد» من المعتقل عاد إلى عمله مع التاجر النجدي «الجبراوي» في سوق الزبير دون أية مشكلات. فقد استعان التاجر بموظف عراقي وعمل معه في أوقات بعد الظهر فقط، وهذا ما أسعد «مساعد» كثيراً وجعله ممتناً له.

في صباح أحد الأيام نادى التاجر على مساعد وطلب منه قراءة رسالة - مع أن التاجر كان يعرف القراءة بالعربية والرسالة مكتوبة باللغة العربية كذلك - وكانت قادمة من الهند ومن عم التاجر نفسه.

بعد ان قرأها «مساعد» قال له إن عمه الثري في الهند يبحث عن شاب من عنيزة يعرف الحسابات وأمين وشاطر بالإنكليزية يساعده على أعماله

التجارية في كلكتا. قال التاجر: إن عمي هذا مسكين ليس عنده أولاد، ولذلك أتوقع يا مساعد أنه سوف يعاملك كابنه!

وأكمل التاجر: هذه وظيفة ممتازة لك يا مساعد رغم أنني لا أريد أن أفَرط فيك أبداً، ولكن يهمني مستقبلك، وأنا أعرف عمي جيداً وسوف أوصيه عليك. فكر في الغد ورد علي بسرعة.

لم يبق على موعد وضع «مائدة» مولودها سوى قرابة شهر واحد، لذلك راقت الفكرة لـ«مساعد» وبعد أنْ أطال تفكيره وقلب الأمر وجد أنها فرصة لاتفَوت فقرر بينه وبين نفسه أن يسافر إلى الهند.

وقبل أن يتشاور مع أحد عاود التفكير بشأن السفر والعمل في الهند والتغَرب من جديد.

سأل نفسه أولاً: هل سأسافر من أجل المال؟ أم من أجل التغيير؟ أم إنه كُرْهُ الزبير؟

كان يجيب على نفسه بكل صراحة: لا.. لم أكره الزبير.. ولكن الغربة هي الغربة والأهل البعيدون بعشرات الأميال سيصبحون بعيدين بمئات الأميال، والرسائل ستصل، والأشواق لن تنتهي. أما عنيزة فبَعُدَت أو قَرُبَت فهي في القلب والروح، وهي محروسة بأهلها وشبابها ونخيلها وكبريائها، فلا

تخف ولاتتردد.

وبخصوص المال فأنا أكيد أنني أحتاجه وأحتاجه كثيراً جداً، فهناك أسرة قادمة، ثم أننى لن أرضي على نفسي أن أقبل العيش طوال عمري موظفاً عند أحد التجار مهما كانت طيبتهم أو كرمهم.

ويعود مساعد ليسأل نفسه من جديد ويقول: لكن يا مساعد.. لاتخدع نفسك.. قل الحقيقة.. لقد أحببت الزبير إلى درجة أنك كنت توزع المناشير المناهضة للحكومة في الليالي الباردة ولم تَخفْ من أحد، والآن تفكر في هجرتها؟ ألست قاسياً عليها؟ بل ألست قاسياً على «مائدة» حبيبتك وزوجتك الآن وعلى أهلها؟ كيف ستقنعها على السفر معك وتترك أهلها؟

كيف ستعيش معك في الهند بدون أهل ولا أقرباء؟

هل فكرت في كل ذلك؟ الأكيد أنك لم تفكر إلا في الرحيل من الزبير وكأنها مدينة عذاب لا مدينة أمنيات وطموحات وأحلام عشت فيها أجمل أيام عمرك!

ألست جاحداً لهذه المدينة التي شعرت فيها بطعم الحب الحقيقي لأول مرة في حياتك؟ والتي تمكنت أن تكون فيها موظفاً محترماً ومثقفاً معروفاً، بل وناشطاً سياسياً تتبنى أفكاراً قومية متوقدة ثائرة

وتدافع عنها! هل نسيت كل شيء؟ هل نسيت الزبير فجأة مقابل عرض مادي وبهذه السرعة؟

كان يرد على ضميره الداخلي بقوة وحماس ويقول: كلا.. لم أنس الأفضال الجميلة هذه المدينة علي. ولن أنسى أنني صرت فيها رجلاً مختلفاً، لايقرأ الصحف فقط، بل ويتفاعل معها، لايعجب بالأفكار القومية فقط، بل ويشارك في التظاهر من أجلها ويدفع أحيانا أكثر من نصف معاشه القليل من أجلها، لا لم أنس أن الزبير هي المدينة التي علمتنى كيف أتفاعل مع الدنيا وأعيش الحياة.

وظل «مساعد» يكرر مع نفسه: لا.. لن أنسي.. لن أنسي.. لكن قد حان موعد رحيلي منها مهما كنت أحبها. وبصراحة هي ليست عنيزة!

عندما بلغ هذا الحوار الطويل منتهاه، وبعد التشاور مع النفس بَت في قراره النهائي: خلاص.. سأسافر.. سافر فسوف تجد عِوَضا عمن تفارقه!

بعد ذلك تشاور مع «مائدة» التي قالت له بلا تأفف: أنا معاك وين ما تروح.

أما «سعدون» – بعد أن أعلمه بقراره المغادرة – فقال له: ما صدقت إني حصلت على صديق جميل مثلك. لكن روح ولا تنسانا أرجوك .

غير أن «يوسف» في البحرين عندما علم بأمره كان الوحيد الذي اعترض، وعرض عليه أنه إذا كان غير مرتاح في الزبير أن يأتي إلى البحرين، إلا أن «مساعد» طلب من التاجر الذي يعمل عنده أن يرسل برقية لعمه بالموافقة، وبعد شهرين إن شاء الله نسافر إلى الهند.

رغم الرسالة الطويلة التي حررها «مساعد» لـ«يوسف» يشرح له فيها أسباب ومبررات عزمه على الهجرة إلى الهند، إلا أنها لم تكن مقنعة بالنسبة له.
لكن ذلك كان أمراً هيناً بالقياس إلى انغماس «مساعد» في الأنشطة السياسية، فالمهم أنه قد طلق السياسة أو بعضها على الأقل، وأُطلِق سراحه من السجن دون عاهات، سوى الندبات الكثيرة وبعض المشكلات الصحية التي عزم «مساعد» أن يراجع بخصوصها بعض الأطباء الهنود عندما يصل.
ومنذ تلك الرسالة الطويلة انقطعت الأخبار عن «مساعد»، إلا أن الاخبار التي أخذت تسترعي

اهتمام «يوسف» هي الأخبار المفرحة عن نهاية الحرب العالمية الثانية، إذ إن استسلام اليابان بعد إلقاء قنابل ذرية على مدينتين فيها وتدميرهما كلياً جعل من نهاية الحرب أمراً نهائياً وواقعاً.

ورغم حلول شهر سبتمبر إلا أن درجة الحرارة لم تزل مرتفعة في البحرين عموماً ولاسيما في المنامة، وقد انتهى حديث الناس عن «بطولات» هتلر ومدافعه التي دكت كل مدن وقرى أوروبا وتهديداته للعالم بالدمار الشامل، ولم يتبق أي أثر لذلك، فكل شيء قد انتهى ومضى، فيما ظلت الحكايات والأفلام الإخبارية عن انتصار الحلفاء التي كان «يوسف» يشاهدها في سينما البحرين.

وما غدا مهما بالنسبة للناس هو أن تتحسن الظروف المعيشية وأن تنخفض أسعار المواد الغذائية وأن تنتعش التجارة. وهذا ما حدث فعلاً أو على الأقل ما لمسه يوسف في المنامة. فلم تمض على نهاية الحرب أسابيع قليلة حتى دبت الحركة في كل شيء وغمرت الحيوية كل نشاط، وفتحت بيوت تجارية جديدة، وانتعش السوق وزادت دكاكينه، وهذا مما ضاعف من عمل ومهام ومسئوليات «يوسف» لتوفير العمل للعمال والكادحين النجديين الذين كانوا يرقبون

وصول اللقمة إلى أفواه أولادهم وزوجاتهم في عنيزة وغيرها.

وفي الأمسيات بمجالس تجار عنيزة الكبار مثل مجلس «العم سليمان» وغيره كان المهاجرون يرتاحون للسواليف وللصحبة التي افتقدوها كثيراً في المنامة وبسبب الحرب. وكانت الأشعار التي تمتدح نجداً أو عنيزة تعوض نوعاً ما عن إحساس ومشاعر الغربة والبُعد عن الأهالي والأحباء.

كانت السواليف تبدأ بعنيزة وتنتهي بها. إذ كان يكفي أن ينشد أحدهم قصيدة الشاعر «على بن رشيد الخياط» المشهور بـ«راعي البندق» حتى يطرب الجميع لها. كان عنوان تلك القصيدة الشهيرة «هذي عنيزة»، وتقول:

«يا درانا لاترهبي يومك سعيد
حنا حماة الدار او شب اشعالها
هذي عنيزة ما نبيعها بالزهيد
لا فر عن البيض نحمي جالها
دونك او دون الغين مخضر الجريد
نروي من الضد الحريب سلالها
يا ما ذبحنا دون غضات تميد
جنايز ترمي ولا حد شالها»

كان كل حضور المجلس تقريباً يحفظون تلك القصيدة عن ظهر قلب، ولكنهم يحبون أن يسمعوها كأنها أغنية وطنية يظلون يرددونها خاصة في الغربة.

وبعد افتتاحية «هذي عنيزة» الشهيرة يتبارى الحاضرون وخاصة الشيبان ببعض الأشعار عن نجد. فواحد يقول:

«بمنشط الشيخ من نجد لنا وطن
لم تجر ذكراه إلا حن مغترب»

وعندما يسأله بعض الحاضرين عن قائل هذا البيت يرد بسرعة: والله مادري.

ويتلقط آخر الخيط وينشد قصيدة بالفصحي أيضا، ويقول:

«أصبو إلى أرض نجد وهي نازحة
والقلب مشتمل مني على الحَزَن
وأسأل الركب عنها والدموع دم
بناظر لم يخط جفناً على وثن
فهل من سبيل إلى نجد وساكنه
يهز من ألف المصرين للظعن
ليس العراق لها بعد الحمي وطنا
يميس عافية بين الحوض والعطن»

ثم يقول له الجميع: ما قصرت يا بوعبدالمحسن.. ما قصرت، فيفرح بوعبدالمحسن بهذا الإطراء فيقول لهم: عندي قصيدة ثانية، اسمعوا:

«فيا حبذا نجدٌ وطِيب ترابه
إذا هضبته بالعشي هواضبه
وريح صبا نجد اذا ما تنسمت
ضحى او سرت جنح الظلام جنائبه
وأشهد لا أنساه ما عشت ساعة
وما انجاب ليل عن نهار يعاقبه
ولا زال هذا القلب مسكن لوعة
بذكراه حتى الماء شاربه».

في الأيام الأخيرة أصبح «يوسف» يعاني من ضعف في نظره. في البداية كان يلوم نفسه: هذا من كثر ما تشوف السينما! والغريب أنه صدق هذا الكلام وراح يردده عند كل شخص يلاقيه، ثم «يلعن» السينما وأيامها وأفلامها كذلك!

تلك كانت حجة استهوت «يوسف» وغدا مرتاحاً لها، بل وغفل عن الشعور بتلك الغشاوة التي أخذت تزداد على عينيه، ونتيجة لذلك امتنع عن ارتياد السينما فترة، وارتأى أن يكثف من مجالسته للنجادة في مجالسهم بالمنامة، وأن لايشغل نفسه بأنور وجدي وليلي مراد ونسوان السينما وكل الخرابيط! فهو

أحوج إلى عينيه منهم!

لكن الغشاوة والحكة في عينية لم تتوقف، فلجأ إلى القراءة فربما يجد فيها ما يعوضه عن السينما. وفي القراءة وجد أن الأمر أصعب بل وأشد عليه، فهو بالكاد يستطيع التدقيق في الكلمات وحتى فك الحروف، وهنا بدأ يشعر بالقلق ولو مؤقتاً.

كان بعض أصدقائه يطمئنونه بأن هذا شيء عارض ويزول، وعلى مدى فترة مؤقتة وينتهي، فكل الناس يصابون مثله بشيء من ضعف النظر.

وقال له صديق: أعتقد أنك يا يوسف إنما تحتاج إلى نظارة طبية.

هونت عليه حكاية النظارة الموضوع كثيراً، ولاحظ أن الكثيرين صاروا يلبسونها وخاصة المثقفين والكبار، فما المشكلة؟

المشكلة كانت في عدم تصديق «يوسف» أن به عاهة أو قصوراً. فبجانب الحكة كانت عيناه تذرفان الدموع دونما سبب، ثم تطورت مع الوقت لتخرج بعض الإفرازات الصديدية، كما أن الحكة فيهما لم تلبث أن تتفاقم.

عند ذلك الحد وبعد إلحاح بعض أصدقائه قرر مراجعة المستشفى الأمريكي بالمنامة مع صديق له

يدعى «عبدالله» لبحث إمكانية أن يلبس نظارة كما قال لأصدقائه.

في الفحوصات الأولية التي أجراها طبيب العيون الأمريكي سأله عن بداية هذه الحكة والدموع والإفرازات، فبين له «يوسف» أن الحكة وضعف النظر والغشاوة بدأت منذ أكثر من شهر، والباقي جاء فيما بعد.

ثم أجرى الطبيب فحصاً شاملاً على نظره فوجده ضعيفاً جداً وأعطاه بعض المراهم والأدوية وطلب منه معاودته مرة أخرى بعد ثلاثة أيام، وتعمد أن لايقول له شيئاً مهماً عن حالة عينيه.

قبل خروجه من المستشفي استدعي الطبيب صديق «عبدالله» وقال له: هل تعرف شيئا عن حالة يوسف؟

رد «عبدالله»: كان يقول لنا دائما إن هناك حكة دائماً في عينيه ثم دموعاً وإفرازات، وقيل له إنه يحتاج إلى نظارة. أما هو فيعتقد أن السبب المباشر في إصابته هو السينما.

ابتسم الطبيب وقال: السينما ليست السبب، كما أنه ليس بحاجة إلى نظارة. الأمر أخطر من ذلك بكثيرا!

شعر «عبدالله» بقلق الطبيب وسأله: وماذا بيوسف تحديداً؟

- سأخبرك بشرط أن تعدني ألا تعْلمه على الإطلاق، وان لا تقول لأحد أيضاً!

- أعدك.

- يوسف مع الأسف الشديد مصاب بالتراخوما، والمأساة أنه في مرحلة متقدمة من المرض أيضاً.

ذُهِل «عبدالله» وشعر بالرعب من كلام الطبيب وقال: وما هو هذا المرض؟ هل هو مرض الخبيث او المرض «الشين»؟

رد الطبيب: لا.. ولكنه مرض خطير يتسبب في إصابة الإنسان بالعمي تماما.

- يعني.. هل يوسف.. سيعمي؟

- أكثر الاحتمالات والفحوصات التي أجريتها عليه تقول ذلك.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. وما العمل الآن يادكتور؟ الرجال فقير وطيب وما هو من البحرين.. جاء من عنيزة من سنتين.. ويش الحيلة ياربي؟ ويش أقول حق أهله؟ حقه أهو؟

- لاتنس يا عبدالله أن تتكتم على الموضوع.. انا أعطيته بعض الأدوية والمراهم، والشفاء من الله كما تعلم.

- والنعم بالله.. لكن هل فيه أمل يا دكتور..

- لا أريد أن أخدعك أو اخدعه.. لكننى الآن وهو في هذه الحالة لن أخبره عن وضعه تماماً، بل سأحاول بمساعدتكم أن نجعله يتقبل الموضوع شيئاً فشيئا.. وليس دفعة واحدة.

- طيب ولو أخذناه للعلاج بالهند ممكن يتحسن.

- يوسف في المراحل الأخيرة.. وهو سيصاب بالعمي قريبا جدا.. ولا فائدة من ذهابه على الإطلاق إلى هناك. وهناك أمر مهم أود إبلاغك به وهو أن هذا المرض معدٍ. فحاذر من استعمال أدواته الخاصة أو لمس عينيه.

خرج «عبدالله» وهو يحاول مغالبة دموعه والتي نجح جاهداً في السيطرة عليها خوفاً من أن يراه «يوسف» كذلك، وكان جالسا في الرواق في انتظاره.

قال «يوسف»: ما قال لك إني أبي نظارة؟

- لا.. قال بس اتحمل بروحك وتأخذ الأدوية اللي عندك وترتاح من كل شيء.

- حتى من الشغل بعد؟

- والله مادرى.. لكن إنت كيفك.

- على خير إن شاء الله.

وصل «يوسف» إلى البيت في المساء وباشر استعمال الأدوية والمطهرات، وبعد فترة شعر بنوع من التحسن

بسيط. ولهذا قرر أن يقصد مجلس «العم سليمان» لسماع سواليف الليل مع الشيبان والشبان.

بعد يومين عندما نهض «يوسف» من فراشه شعر أن نظره ضعيف لدرجة أنه راح يتحسس الجدران للذهاب إلى الحمام. وشعر وكأنه ما يزال في الليل أو أن الليل لم ينقض بعد. وعندما أنهي حمامه بصعوبة شديدة راح يختبر نفسه في كل شيء، من لبس الثياب إلى النظر إلى محتويات الغرفة إلى محاولة قراءة الأوراق، وفي كلها بدا وكأنه في الليل والظلمة لايرى شيئاً.

وبعد محاولات استطاع أن يستدعي صديقه «عبدالله» فأخبره بحاله فطلب منه الذهاب إلى المستشفي في الحال.

وعند الطبيب قام هذا بالفحوصات واكتشف أن العمى بلغ هدفه وأصاب «يوسف»!

قال الطبيب: ستجد صعوبات كثيرة في النظر هذه الأيام، ولكننا نحاول أن نزيلها بالأدوية، وأرجوك أن تساعدنا في ذلك، والشفاء يحتاج إلى صبر.

هنا انتفض يوسف وقال: لكنني يا دكتور لا أرى شيئا اليوم. أشعر أن الدنيا ليل وظلام دامس.. ماذا بي.. أخبرني أرجوك؟

- بك مرض يسمي التراخوما وهو مرض صعب، يُضعِف النظر كثيراً ولكن..

- هل تقصد أنه يسبب العمى؟ هل أنا أعمي الآن؟

ولم ينتظر «يوسف» الجواب وانهار وأخذ يبكي بحرقة ويصرخ: أعمي.. ما أشوف.. صرت أعمي.. ويش سويت بعمري.. عميت يا ربي.. عميت..

كان صديقه يحاول تهدئته والطبيب كذلك ولكن بلا فائدة، فالانهيار الكامل الذي أصابه وانخراطه في هذا البكاء الحار لم يتوقف إلا عندما قال له الطبيب:

- يا يوسف.. لاتحزن.. الحمد لله أنك لم تُصَب بمرض خبيث أو مجهول لايستطيع أحد علاجك، كما أن هناك أملاً .. أطلب منك أن تتمسك بالأمل.

خرج «يوسف» وصديقه وهما يمسكان ببعضهما بعضاً، فقد كان يوسف يمسك بيده لانه صار لايرى شيئاً، بينما «عبدالله» يمسك يده تعاطفاً وهو لايدرى أنه أصبح منذ ذلك اليوم يقود أعمي!

بعد كل البكاء والدموع والحُرقة والحزن الكبير تحولت حياة يوسف إلى جحيم لايطاق، ففي البيت كان لايعرف كيف يدبر أموره، وإذا ما حاول الخروج فإنه يتعثر في طريقه أكثر من مرة في اليوم.

عندما علم «العم سليمان» بالأمر قام بزيارته وأكد له أنه سيصرف راتبه حتى يتم شفاؤه، وما إن أكمل كلامه حتى قام «يوسف» وتحسس رأسه وقبلها تقبيلة عرفان.

ثم قال «العم سليمان»: وأكثر من كذا.. أنت ابني ولاتخاف من شيء.. ما بخليك لوحدك.. من اليوم بيكون عندك خادم يقودك بالخارج ويشتغل عندك بالبيت.. واللي تامر به بعد.

ومرة اخرى قام «يوسف» وقبل رأس «العم سليمان» وهو يبكي.

أسعد كل هذا الموقف الانساني الجميل من «العم سليمان» «يوسف» وأراحه بالطبع وجعله من حياته مقبولة نوعاً ما وإنْ لم يتقبل الظلام الدامس الذي اصابه.

حتى الخادم «جوهر» كان يشفق عليه خاصة عندما يسأله:

- حنا بالليل ولا بالنهار يا جوهر.

- من زمان حنا بالليل.

ويعود «يوسف» إلى أحزانه.

في بعض الأحيان كان يقول لنفسه وهو يمسح دموعه: احزن يا يوسف .. احزن.. إذا لم تحزن اليوم فمتى

إذاً سوف تحزن وتبكي كالطفل.

ورغم أن راتبه وهذا الخادم الطيب «جوهر» كانا يساعدنه كثيراً على الحياة وصعوبتها بالنسبة لشخص أعمى مثله، إلا أنه كثيراً ما ينساق للتحسر والتأسي على ما فات وعلى ما سيأتي.

كان يتحسر مثلاً على فوات فرصة تعلمه اللغة الإنكليزية الذي بدأ به منذ أسابيع في «مدرسة التاجر» القريبة من الحي الذي يسكنه. وكان يُشفِق أيضاً على والدته وشقيقته «جواهر» اللتين لم تعلما بعدُ عن فقدانه لبصره بسبب إصراره على ذلك، بل وإصراره أكثر على أن لايعرف أحد من أهل عنيزة عن ذلك. وبطبيعة الحال كان ذلك الإصرار أمراً صعباً، فالأخبار إنْ لم تصل اليوم إلى عنيزة فإنها ستصل في الغد، أما والدته وأخته فلا أحد بالضبط يعلم إنْ كانتا ستعرفان ذلك من أصدقاء أو من مسافرين قادمين من البحرين.

حاول «مساعد» الذي وصل إلى الهند وكلكتا تحديدا، وعَلِم بما حصل لـ«يوسف»، دعوته للقدوم إلى الهند للعلاج، وكتب له يقول: «تعوذ من إبليس يا خوي وتعال بس.. اترك عنك أطباء الأمريكاني وتعال حق أطباء الهند السحرة.. والله إنْ يخلون عيونك تصير

مثل الصقر. وترى الولد يوسف اللي سميناه على اسمك بدأ يحبي وطلع مثل أبوه شري، و«مائدة» تسلم عليك وتراها صارت هندية الحين. كل يوم تجيب الفلفل والبهارات الحارة والطرشي الحار، ما بقي إلا تحط نقطة حمراء على وسط جبينها وتخلص. سلامي لك».

كان «يوسف» يضحك وهو يستمع إلى بعض الرسائل الواردة من «مساعد» بالذات، التي كان «عبدالله» أو «جعفر» يقرآنها عليه حسب تواجدهما في البيت، الأمر الذي يُشعِره في أغلب الرسائل أنه يمازحه وأن يجعله مثل «الأعمي الضاحك»!

مع حالة العمي دخل يوسف رغم إرادته عالماً غير العالم الجميل الذي كان يعيش مع اللهو البرىء في السينما والملثين والممثلات ومتابعة أخبارهم عبر المجلات أيضاً.

حتى القراءة الجميلة التي طالما عاش معها أجمل أيام عمره صارت عصية إلا قليلا حينما يزوره «جعفر» بالتحديد الذي لايَمَل من القراءة له، حتى يستحي هو ويقول له: بس يا جعفر.. تراك دِوَشْت راسي.

في بعض الأحيان يشعر «جعفر» بأن «يوسف» النهم

السابق للقراءة لايقول ذلك من قلبه بل إشفاقاً عليه، لكن كان يضحك من كلامه ثم يواصل القراءة غير مبال شيء.

وفي بعض الأحيان كانا يمزحان مع بعضهما بعضاً حيث يهدد يوسف صديقه قائلا:

- شوف يا جعفر.. ترى إنْ قلت لي أخبار غلط ترى أوريك!

يضحك «جعفر» في كل مرة، بل ويشعر بسعادة بحال صديقه الذي خف عنه الكثير من الحزن وأخذ يمزح ويضحك، لذلك يواصل القراءة ويقول له:

- لا باقرا ليك المقالات غلط!

في رسالة أخيرة من «مساعد» قال: «الهند يا صديقي بلد العجائب والغرائب. وإذا لم تصدق فاسمع هذه الحكاية. كنت عائداً من عملي في الدكان وكان الطريق إلى شقتي بعيداً بعض الشيء. وفي أثناء ذلك قابلني رجل راكب فيلاً ضخماً - والأفيال هنا كلها ضخمة على كل حال - وعرض علي الركوب معه وإيصالي إلى البيت مقابل بيزات قليلة. وركبت وأنا خائف ولكنها تجربة جميلة جداً. وما تقولي بِعران.. هذه أفيال والله يعيني. وإذا بغيت أرسلك فيل واحد لك في البحرين وواحد حق

مجلس الشبلاوي بعنيزة فأنا حاضر. وتراني ما أمزح.. وسلامي للجميع».

كان تعليق «يوسف» الأول على الرسالة هو: ما خليت شيء يا مساعد حتى الفيل وركبته. الله يستر منك بس.

كانت رسائل «مساعد» تأتي بين شهرين وأحيانا شهر ونصف، ولكنها منتظمة. ورغم التباعد بينها إلا أنها مع الوقت صارت من أكثر ما يريح «يوسف» ويسعد ويسلي عنه، حتى إنه كان يطلب من «جعفر» ان يقرأها عليه مرتين وثلاثاً، وكانت البسمة الممزوجة بالضحك لاتفارق وجهه في كل مرة.

لم تمض شهور قليلة على عمل «مساعد» في الهند حتى حصل على مكافأة ضخمة ومعتبرة من «الحاج علي» التاجر النجدي الذي يعمل عنده في مدينة كلكتا. كانت المكافأة نتيجة نجاحه في توريد صفقة ضخمة من الأخشاب الهندية الممتازة إلى بعض التجار في الكويت والبصرة. وكانت مبلغاً كبيرا من المال دفع «مساعد» لأنْ يفتح حساباً باسمه في البنك لاول مرة في حياته، ويودعه فيه.

وفي تلك الأثناء كان «مساعد» لاحظ أن «الحاج علي»، الذي كان يشعر بالوحدة الشديدة لعدم إنجاب زوجته الهندية أولاداً، كان يحتاج إليه وإلى

ثقته وثقافته ولغته الإنكليزية الجيدة أكثر من أي موظف آخر.

ومن جانب آخر كان لدى «مساعد» طموحات كبيرة في العمل بالتجارة وإنشاء شركة تجارية خاصة به، وهو الموضوع الذي كانت زوجته «مائدة» تلح عليه كثيراً كي يشرع فيه وبأسرع وقت.

أثناء طريقة إلى العمل وأحياناً عندما يذهب إلى المقهي كانت الأسئلة التي تلح عليه دائماً: صحيح.. لماذا لا أنشىء تجارتي لوحدي؟ ما الذي ينقصني؟ هل هؤلاء التجار احسن منى في شيء؟ ماذا عندهم غير توفر المال؟ أنا عندي كل شيء: الخبرة والمهارة والثقافة والتعليم؟ المال هو الذي ينقصني فقط وهو الذي يجب أن أتدبره بسرعة.

لم يجد بدأ من عرض الأمر على «الحاج علي» الذي فوجىء كثيراً بالموضوع ولم يعطه جواباً على رغبته في الخروج من العمل.

لكنه بعد يومين قال له: لا أستطيع أن ألزمك بالبقاء معي، ولكن أرجوك لاتستعجل في الموضوع، فالتجارة ثلاثة ارباعها مغامرة وربعها مال!

رد مساعد: وأنا لدي الثلاثة أرباع ولكن ينقصني شويه من هذا الربع!

ضحكا معاً، وقال الحاج علي إنه يستطيع تسليفه بعض المال ولكن بشرط أن لاتتعارض تجارة «مساعد» الجديدة مع تجارته، وطلب منه الحلف علي ذلك، ففعل.

دبر «مساعد» الأموال اللازمة بما فيها رصيده في البنك الذي سحبه لإنشاء مشروعه التجاري واتخذ محلاً لممارسته في شارع قريب من محل «الحاج علي» وكتب على اليافطة: «شركة مساعد لتصدير المواد الغذائية».

أما في أوراق مكاتباته التجارية فكتب فوقها «شركة مساعد هلال لتصدير الاغذية لبلدان الخليج العربية.. كلكتا.. تليفون ١٦٨٤٠. تلغرافيا: مساعد».

استفاد «مساعد» طبعا من عمله في الزبير ثم كلكتا والتجار الخليجيين خصوصاً الذين كانوا يتعاملون معه. بل إن هؤلاء هم الذين وقفوا معه في الأيام الأولي بعدما ثبت لهم من تجاربهم معه أنه كان أهل ثقة وأمانة، وهذا كان أهم اعتبار لديهم.

كانت منطقة الخليج كلها يومها تعتمد على الهند في الأغذية خصوصاً، وهذا ما استفاد منه مساعد كثيراً رغم المنافسة الشديدة مع تجار نجديين آخرين في كلكتا نفسها ومدن هندية أخرى مثل

بومبي وكراتشي، بل إن «مساعد» شعر بالمنافسة أكثر مع التجار الهنود.

كانت المواد الغذائية التي يصدرها «مساعد» من الهند كثيرة ولكن أهمها كان: الفلفل، الكركم، الزنجبيل، الصبار، الخل، القهوة، السكر، الهيل، الأرز، الشاي، القرنفل، العدس، الماش، الدارسين، الطحين، الليمون الأسود، وغيرها.

ومع انشغاله بالتجارة التي كانت تأخذ الكثير من وقته، كان ابنه يوسف بالنسبة له هو أجمل وأروع شيء في كلكتا والهند كلها.

كان عندما يلهو مع ابنه - الذي كان يشبه والدته كثيراً - يرى نفسه طفلاً، يتذكر عنيزة وحواريها وأزقتها الضيقة وأصدقاء الطفولة الأقل شقاوة منه.

وفي صورة أخرى كان يرى في ابنه يوسف الهند كلها بكل عجائبها وأساطيرها وسحرتها وخرافاتها.

وبينما كانت التجارة تنتعش مع «مساعد» كان يزداد لهواً ولعباً مع يوسف الذي أخذ يملأ البيت سعادة وانبساطاً بصراخه ولعبه وطلباته.

أما «مائدة» فكانت تنتظر مولودها الثاني، وكان مساعد يتوقع كثيراً أو يتمنى من داخل قلبه أن يكون المولود هذه المرة بنتا كي يسميها «سارة».. الحب

الجميل الأول في عنيزة. فمنذ خروجه من الزبير لم يسمع أية أخبار عن «سارة الماضي» تماماً، لكن الأخبار التي وصلته وهو في العراق كانت تقول إن سارة لم تنجب حتى الآن وأن زوجها «أحمد الشبلاوي» يفكر في الزواج بأخرى.

مع أن ليالي المنامة هي نفسها لم تتغير إلا أن «يوسف» أحس في الليالي الأخيرة أن نومه صار قليلاً وقلقه وتفكيره تزايدا أكثر من أي وقت مضى. ففي الصباح يجلس مع خادمه ويتسلى وإياه بالحديث ثم يخرجان إلى سوق المنامة لزيارة أصدقائه والجلوس لبعض الوقت في دكان «العم سليمان» الكبير.

كان «يوسف» قد بدأ يسائل نفسه وبإلحاح متزايد: ولماذا أظل مقيماً في المنامة الآن؟ لقد فقدت البصر وصرت لا أعمل وتغيرت حياتي وانقلبت ظلاماً دامساً؟ لماذا علي البقاء هنا؟ كل الناس هنا، حتى

«العم سليمان» وغيره من التجار صاروا بعد أنْ ملوا من تعاطفهم وتضامنهم معي، يجاملونني بصورة واضحة!

كانت تلك الأسئلة جزءاً من الوضع الجديد الذي وجد نفسه فيه بالبحرين، فلم يعد ذلك الشاب النشيط الذي يدبر الأعمال للفقراء والكادحين من أهل عنيزة ونجد في المنامة، ولم يعد عاشق السينما السابق الذي لايفوته فيلم واحد، ولا ذلك القارىء النهم الذي لايرتوي من قراءة المجلات والصحف والكتب.

لقد تغير «يوسف» غصباً عنه. صار لايمشي إلا ومعه عصا تساعده رغم وجود الخادم، وراح يلبس نظارة سوداء كي لايرى الناس «بشاعة» ما حدث لعينيه من تشوهات بسبب التراخواما اللعينة التي قضت على نظره.

كان عندما يمشي في الطريق يخلق انطباعاً لدى من يشاهده من الناس بأنه شيخ دين ذاهب إلى المسجد، أو رجل عجوز فقد البصر بسبب التقدم في العمر. وروحه وقلبه كَبِرا من الحزن الشديد ومن المأساة الكبيرة التي حلت به، وكل هؤلاء الأصدقاء المحيطين به والمتعاطفين معه من أمثال

«جعفر» و«عبدالله»، ورسائل «مساعد»، وموقف «العم سليمان» الجميل، لم تفلح في جعله يغفل عن الفجيعة التي كادت ان تسيطر على قلبه.

في إحد الليالي كان يتسامر مع «جعفر» الذي كان يقرأ له مقالاً في مجلة «الاثنين والدنيا» المصرية عن الممثل «أنور وجدي» الذي كان «يوسف» مغرماً ببراعته في التمثيل وبمشاهدة كل أفلامه، قال «يوسف» مقاطعا «جعفر»: أنا في ظلام الحين.. فلو جلست في البحرين والا رجعت عنيزة ويش الفرق؟

سكت «جعفر» ولم ينبس ببنت شفه وتركه يكمل: على الأقل أروح عنيزة وأجلس مع أهلي وأصدقائي وفي وسط بلادي أبرك لي!

رد «جعفر»: إذا كان هذا يريحك سَوه.

- خلاص ياصديقي باروح عنيزة وسامحوني.

بعد ثلاثة أيام فقط سافر «يوسف» إلى عنيزة بعد وداع حار من «جعفر» و«عبدالله» اللذين وعدهما بالتواصل بالرسائل، كما ذهب إلى «العم سليمان» الذي أعطاه مبلغاً جيداً من المال، وطلب منه ألا يتردد عن طلب أي شيء.

في عنيزة اكتشف «يوسف» أن والدته وشقيقته «جواهر» كانتا تعلمان بفقدانه بصره الذي كان

يكتمه عنهما، بل اكتشف أيضاً أن عنيزة كلها تعرف ذلك، فلا شيء يمكن إخفاؤه في هذه المدينة.
كانت والدته أكثر نساء عنيزة حزناً، فلم تذق طعم الفرح ولا عرفت الابتسامة طريقاً إلى وجهها منذ عرفت بمأساة ابنها.
في الصباح كانت تطالعه وهو يمسك بالعصى يحاول أن يتلمس المكان والأشياء وتتركه حتى يفشل، عندها تهب لمساعدته وهي تحبس الدموع في عينيها .
لم تكن تتصور أن ابنها الوحيد سيتعرض لهذا، وأحياناً كانت تلوم نفسها على أنها هي التي شجعته على الاغتراب وهو الذي كان متردداً. كان أكثر ما يؤلمها هو أنه شاخ قبل الأوان، وأنه لم يتزوج ولم ينجب، فلم تفرح بأولاده ولا سمعت صراخهم وبكاءهم وضحكاتهم في البيت كما كانت تتمنى. وكم كان يؤلمها أنْ تجد نفسها مرة أخرى ترعاه كطفل، طفل في هيئة رجل كبير.
غير أن هذا الحال لم يدم طويلاً، حيث لم تستطع أن تعيش مع هذا الألم والحزن والحسرة والكمد، فماتت بعد ثلاثة أسابيع فقط من وصول «يوسف»

إلى عنيزة.
في المقبرة قاده أصدقاؤه الذين حضروا مراسم الدفن وساعدوه بصعوبة بالغة حتى أنه تعثر أكثر من مرة.
لَزِم يوسف البيت وحيداً مع الظلام يضرب بعصاته الجدران إذا أراد الذهاب إلى الحمام، أما باقي احتياجاته الأخرى فكانت شقيقته «جواهر» تتولاها وتضعها في غرفة نومه.
وكان أنيس «يوسف» بعد رحيل والدته المفاجىء هو «راديو» كبير أحضره معه من البحرين، ففي وحدته في الليالي الموحشة كان يسمع عبره الأخبار وأغاني أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب وليلي مراد وأسمهان وغيرهم.
كان يقول لأصدقائه عندما يرتاد مجلس الشبلاوي دائماً أنه صار لايشاهد إلا قلبه! لقد صرت أتبع قلبي وأصدق روحي وأشاهد الذكريات وأسترجع الطفولة وأسمع الاغاني، هذا كل ما بقيَ لي من حياتي المظلمة الجديدة.
في النهار كان يزور مزرعة المهرانية ويشرب القهوة مع صاحبها «العم محمد المشيقر» الذي عمل معه سنوات طويلة. وفي تلك الجلسة التي كان يوسف

يشم فيها رائحة النخيل والخضراوات والحشيش الأخضر ورائحة الأرض التي ارتوت لتوها بالماء، في تلك الجلسة كان «العم المشيقر» و«يوسف» يتعاونان على استرجاع ذكريات النخيل والزراعة والعمل بالحقل.

وفي الصباح يزور مجلس الشبلاوي ويجلس هناك حتى وقت صلاة الظهر مع بعض أصدقائه الذين يقرأون له بعض المجلات والصحف المتوفرة. واذا عجزوا عن القراءة قالوا له: ترى عنيزة تغيرت يا يوسف.. صار بها مدارس وأطباء وعمرت كثيراً.

لكن «يوسف» يشعر هنا بالغصة عند هذا الكلام ولايستطيع أن يقول لهم شيئا!

ويرجع الأصدقاء للحديث عن عنيزة قائلين: وترى صار عندنا مصور الحين للي راغب في عمل جواز والا غيره.

هنا ابتسم يوسف وسألهم: صار في عنيزة مصور؟ ويردون جميعاً: إيه.. عندنا مصور بالسوق لكن ما عنده دكان!

عندما رجع «يوسف» في ذلك اليوم إلى البيت أخبرته «جواهر» أن له رسالة من الهند، فطلب منها في الحال أنْ تستدعي أحداً من أصدقائه لكي

يقرأها عليه. فحضر أحدهم.

وعندما قرأ عليه في نهاية الرسالة أن «مساعد» يقول: «تراني صرت تاجر يا خوي.. وإذا ودك بجواني عيش ولا زنجبيل ولا دارسين ولا غيره تراني حاضر وممنون» وضحكوا جميعا.

في الليل فكر «يوسف» وهو يسمع بعض الأغاني من الراديو أن يكتب له شيئا غير عادي! أي مكتوب ليس به كلام عن أحواله وأخبار عنيزة.

لكنه غير رأيه في الصباح وقرر الذهاب إلى المصور الذي كان يتجول في السوق ويصور من يرغب في التقاط صورة له.

في البداية استغرب المصور من هذا الرجل الذي بدا له وكأنه شيخ دين ينوى أن يشتمه أو ينهره بسبب هذه الكاميرا «النجسة» كما سمع كثيرين يسبونه على ذلك، لكن رخصة التصوير التي كانت معه من أمير المدنية حمته وأنقذته من الكثير من المشاكل.

لاحظ المصور بأن هذا الرجل الكبير أو الشيخ أعمي.. فكيف يريد التقاط صورة له؟!

قال لنفسه: هذه أول مرة أشاهد أعمي يريد صورة له؟ كيف سيعرف أن الصورة جيدة متقَنة

التصوير مثلاً أو نحو ذلك؟ وأحس «يوسف» بهواجس المصور فقال له: أريد صورة تذكارية وأرجوك اجعلني كما أنا.. لا آريد أن تجملني في شيء. هكذا أنا بالنظارة السوداء والعصا والثوب.. أرجوك.
قال المصور: حاضر يا شيخ.
وقبل أن يشرع المصور في التقاط الصورة قرر « يوسف» أن يبتسم!
والتُقِطت الصورة وأخذ يوسف نسختين منها وأنقده ومضى في سبيله وسط ابتسامات رواد السوق الذين وقفوا يتفرجون على هذا المنظر العجيب، وربما على «الجنون» الذي أصاب هذا الأعمي المسكين.
في مجلس الشبلاوي طلب «يوسف» من أحد الأصدقاء كتابة رسالة إلى «مساعد» في الهند، وراح يملي على الكاتب» هل تذكر يا مساعد أننى عندما سافرت لأول مرة إلى البحرين وحصلت على الجواز كيف كُتِب على جوازي «لايوجد مصور في عنيزة»؟ هل تذكر هذا؟ أبشرك يا عزيزي إنه صار عندنا مصور. ولأثبت لك ولتذكرني بخير أرسل لك صورتي التي التقطتها لتوي في السوق

وسط دهشة المارة. لكن أرجوك أن تعذرني، إنني لا أعرف ما شكلي، ولا أعرف كم شعرة بيضاء صارت في شنبي ولحيتي. لا أدرى كيف كبرت ولا كيف صار وجهي. لقد طلبت من المصور أن يصورني كما أنا.. الأعمي الضاحك الذي أسميتنيه يوماً ما. طالع الصورة واضحك أنت عليّ.
أما الآن فسوف أهدر بعض الدموع، فقد فقدت والدتي مؤخراً. لقد رحلت آخر امرأة في حياتي .. رحلت بحنانها وحبها.. تركتني طفلاً كبيراً.. لم تستطع المسكينة أن تراني أعمى، كان قلبها يتقطع كل يوم، بينما كنت أنا بدون قصد أسرق أي فرح في روحها.
إذا مِت يا مساعد فأرجوك أن لاتموت وأنت غريب. تعال هنا واطلب أن يدفنوك تحت رمال عنيزة الناعمة . لاتضع جثتك في مقبرة غريبة مهما كان جمالها وروعتها. على الأقل تذكر أن عظامك التي عاشت معك لاتريد بل ولاتتمنى إلا أن ترقد في رملها وليس في أي مكان آخر.
أما أنا يا صديقي وحبيبي فلم يبق لي سوى الظلام.. لم يبق لي سوى عنيزة التي لم تفقد

البصر بعد. لقد فقدت البصر لكن عنيزة لم تعم بعد .

كتب هذا المكتوب في عنيزة العامرة بتاريخ ١٢ من ربيع الثاني ١٣٦٦ هجري، الموافق ٤ من فبراير ١٩٤٧ ميلادي».

كتب خالد البسّام

المؤلفات:

١- تلك الأيام

حكايات وصور من بدايات البحرين.

الطبعة الأولى والثانية ١٩٨٦، ١٩٨٧م

مطبوعات بانوراما ـ البحرين.

الطبعة الثالثة: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ٢٠٠٥م.

٢- رجال في جزائر اللؤلؤ

الطبعة الأولى، البحرين ١٩٩١م.

الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ ٢٠٠٧م.

٣- خليج الحكايات

الطبعة الأولى: رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩٣م.

٤- مرفأ الذكريات

رحلات إلى الكويت القديمة، الطبعة الأولى: دار قرطاس للنشر ـ الكويت: ١٩٩٥م.

٥- بريد القلب

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠م.

٦- بساتين

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٠م.

٧- عزف على السطور

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠م.

٨- حكايات من البحرين

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠١م.

٩- يا زمان الخليج

دار الساقي، لندن، ٢٠٠٢م.

١٠- كلنا فداك

البحرين والقضية الفلسطينية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥م.

١١- النجدي الطيب

سيرة التاجر والمثقف سليمان الحمد البسام ١٨٨٨-١٩٤٩م

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٨ م.

الترجمات:

١- القوافل

رحلات الإرسالية الأمريكية إلى مدن وقرى الخليج والجزيرة العربية. ١٩٠١ - ١٩٢٦م.

الطبعة الأولى: البحرين ١٩٩٣م. الطبعة الثانية: دار قرطاس الكويت ٢٠٠٠ م.

٢- صدمة الاحتكاك

حكايات الإرسالية الأمريكية في الخليج والجزيرة العربية ١٨٩٢ - ١٩٢٥م.

دار الساقي، لندن ١٩٩٨م.

٣- ثرثرة فوق دجلة

حكايات التبشير المسيحي في العراق ١٩٠٠ - ١٩٣٥م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤م.

الإعداد:

١ - نسوان زمان

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢م.

٢ - علي سيار.. عمر من الكتابة

وزارة الإعلام، البحرين - ٢٠٠٦م.

٣ - عبدالله الزائد.. شموع تضئ

وزارة الإعلام، البحرين، ٢٠٠٦م.

٤ - يوميات المنفي

عبدالعزيز الشملان في سانت هيلانة ١٩٥٦ - ١٩٦١

البحرين، الطبعة الأولي، ٢٠٠٧م.

٥ - محمود المردي.. أضواء قلم

وزارة الإعلام، البحرين، ٢٠٠٧ م.

٦ - حسن الجشي.. البدايات الشجاعة

وزارة الإعلام، البحرين، ٢٠٠٧ م.

٧ - تقي البحارنة .. عنفوان الكتابة

وزارة الإعلام، البحرين، ٢٠٠٧ م.

بين مدن «عنيزة» في نجد و«الزبير» في العراق و«المنامة» في البحرين و«كلكتا» في الهند تناثرت حكايات وأحداث هذه الرواية، وتجول الابطال بينها، يلهون بالتاريخ وخياله ومغامراته، بعيدا عن ضجيج المستقبل المشكوك في قدومه أصلا.

أما الكاتب خالد البسام، مؤلف حكايات التاريخ المعاصر، فهو يروي روايته الأدبية الأولى.

البريد الالكتروني للكاتب:

albassamk@hotmail.com

NO PHOTOGRAPHER IN UNAIZAH



لا يوجد مصور في عنيزة



بين مدينة عنيزة في نجد والزبير في العراق والمنامة في البحرين وكلكتا في الهند، تناثرت حكايات هذه الرواية وأحداثها، وتجوّل الأبطال بينها يلهون بالتاريخ وخياله ومغامراته، بعيدًا عن ضجيج المستقبل المشكوك في قدومه أصلاً.

أمّا خالد البسّام، مؤلّف حكايات التاريخ المعاصر، فهو يروي روايته الأدبيّة الأولى.

ISBN 978-9953-36-266-1

9 789953 362663

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
هاتفاكس: ٧٥٢٣٠٨/٧٥١٤٣٨
http://www.airpbooks.com